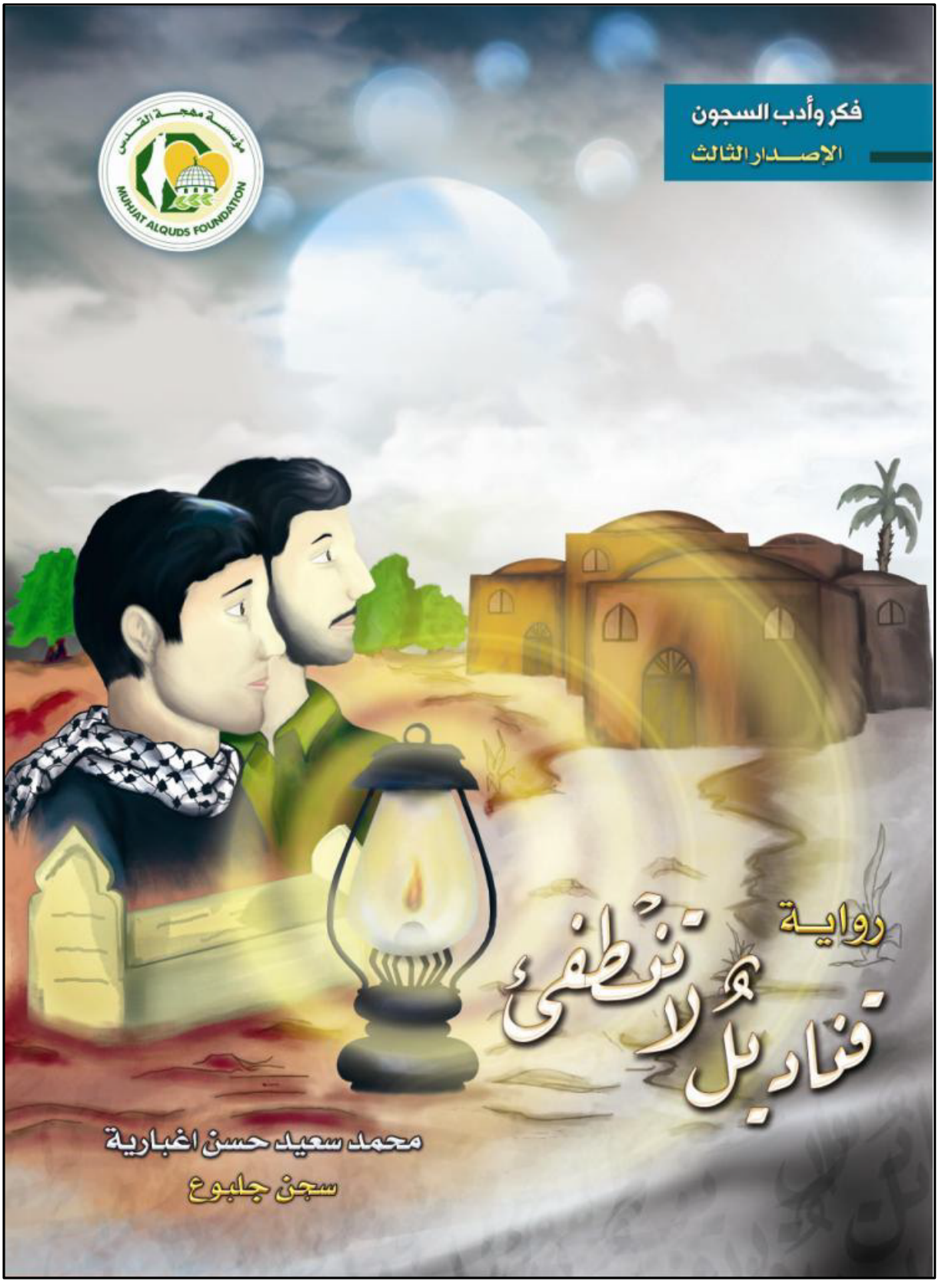

مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS FOUNDATION
فكر وأدب السجون
الإصـــدار الثالث
روايــة
قناديلُ لا تنطفئ
محمد سعيد حسن اغبارية
سجن جلبوع

الكتـــاب: سلسلـــة فكـــر وأدب السجـــون (3)
رواية "قنـديـــل لا تنطفـــئ"
المــؤلف: الأسيـــر المجاهـــد/ محمد سعيد حسن محمود اغبارية
الناشـــر: مؤسســـة مهجـــة القـــدس
غـــزة - فلسطيـــن
الطبعـــة: الأولـــى
سنة النشر: ربيـــع أول 1433هـ / فبرايـــر - شبـــاط 2012م

الكتب والدراسات التي تصدرها المؤسسة تعبر عن آراء واجتهادات مؤلفيها
حقـــوق الطبـــع والنشـــر محفوظـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾

[الحديد: 19]

إهــداء..

- إلى الذي زاملني الزنزانة لحظة بلحظة وتابعني الكتابة نقرة نقرة ولفظة لفظة وكنت أتحسب لنقده ألف حساب..
  إلى عبد الله اغبارية
- وإلى والديّ العزيزيْن
- وإلى الزوجة الغالية "أم عبد الله"

1

يحسب الإنسان أن المحارات وحدها هي التي تطوي في داخلها اللآلئ والدرر، وأنها تحتكر لنفسها المهمة الجليلة في اختزان الغالي والنفيس.

الصراحة أنا نفسي ظللت أحمل في أعماقي نفس الاعتقاد، وبقيت مثلهم أنظر دائماً إلى المحارات بإكبار وإعجاب كونها تحتضن بإصرار عنيد وتحد عصيٍّ النادر والثمين. إذ لأجل الظفر بواحدة فقط كان يستنزف من طلابها الكثير الكثير.

هذا الاعتقاد ظل يرافقني في طفولتي وفي دراستي الإعدادية عندما حَفَّظنا معلم الشعر حافظ إبراهيم:

أنا البحرُ في أحشائِهِ الدرُّ كَامِنٌ فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتي

واستمر معي في شبابي. وحتى لما كبرت وكنت أحسب أن عقلي لا يخذلني، بقيت مُصراً على نفس الاعتقاد ونفس التصور. لكن ليس دائماً على هذا النحو تسير الأمور فكما يكون لخروج الثمرات من أكمامها موعد محدد لا يتخلف، هكذا تماماً لي براعم الحقيقة النافية لاعتقادي السابق في موعدها المحدد أيضاً تقول: ليس المحارة وحدها تختزن اللؤلؤ، وإنما الإنسان أيضاً يا صديقي. ومتى كان ذلك؟

حصل هذا معي في سجن جلبوع[1] قسم (1) الذي فيه قد عزلت مصلحة السجون أسرى الداخل وأسرى القدس عن إخوانهم أسرى الضفة والقطاع.

ففي أحد أيام شتاء 2005 كنت أتدرج في فورة القسم[2] مع أحد الأسرى من سكان القدس من الذين تم أسرهم في انتفاضة الأقصى. حيث جاءنا إلى السجن وكنانته تطفح قصصاً وحكايا عن أحداث الانتفاضة ووقائعها، وعن أشياء أخرى كثيرة. ومثلنا نحن الأسرى القدامى نحِن بشكل جنوني إلى سماع أي شيء عن العالم الخارجي كما تحن الأرض المشققة إلى قطرات الماء.

لذلك كنت معه أسمع وأسمع وألتهم ما يقوله التهاماً، وعواطفي ترسم رسماً بيانياً يهبط ويصعد، يتسع ويضيق تبعاً للقصة التي يحكيها.

---

(1) **سجن جلبوع:** هو سجن جديد يقع في غور بيسان بجوار سجن شطة القديم ويعتبر جزءٌ منه، وافتتح في نيسان 2004 ويتكون من خمس أقسام وفي كل قسم هناك 15 غرفة وتتسع كل غرفة إلى 8 أسرى ويشهد اكتظاظ شديد، ولا تكفي الأَسِرة للأسرى الموجودين فيه. وهو عبارة عن قلعة حصينة أُقيمت من الأسمنت المسلح والفولاذ ويحاط بجدار ارتفاعه تسعة أمتار ويوجد في أعلاه صاج مطلي وذلك كبديل عن الأسلاك الشائكة التي توجد عادة في جميع السجون، وقد شارك خبراء ايرلنديون في التخطيط لهذا السجن على طريقة السجون الايرلندية، وقد تم إدخال "عنصر سري" تحت أرضية السجن، ولا يسمح بالحفر، وإن تم إخراج جزء من الباطون الذي يغطي أرض السجن يتحول لون أرضية الغرفة إلى لون آخر يشير إلى محاولة حفر خندق.

(2) **الفورة:** هو لفظ يطلق على المدة الزمنية التي يسمح بها للأسير بالخروج إلى ساحة السجن للترويح عن نفسه، وعادة ما تكون ساحة صغيرة، والفترة التي يسمح للأسرى بالخروج إليها قصير.

فتجدني تارةً أبتسم وأخرى أضحك من كل قلبي وتارةً يتمادى الحزن بعواطفي حتى تخوم البكاء. وهو على ما يبدو كان ببداهته يقرأ على وجهي ملامح وإيحاءات تطلب المزيد. والصراحة لقد كان معي سخياً إلى أبعد الحدود.

ومن قصص هذا اليوم التي لا أريد أن أنساها، وأريد أن أحفظها عن ظهر قلب قصته هو مع طائر الكناري.

لكن في البداية عليَّ أن أشير أن صاحبي كان شاباً نشيطاً يمقت الكسل فكان يعمل في القصارة ويفلح الأرض ويربي الطيور في بيته، وفوق هذا وذاك انخراطه في المقاومة ضد الاحتلال، وكان أيضاً يعتني بأمه وأخواته أيما اعتناء إذ أن أباه كان قد توفي مخلفاً له هذا الإرث الثقيل والحبيب في الوقت نفسه.

وقبل أن أشرع في سرد القصة أريد أن أكون معكم صريحاً:

لقد عشقت هذه القصة القصيرة وباتت عليّ غالية وعزيزة ربما لأنها بشكل ما تشابه إلى حد كبير وضع الأسير بعواطفه وانفعالاته في الأسر. وأعرف أنكم لربما تضحكون منا نحن الأسرى وتسخرون منا لكن لا يهم فسروركم وفرحكم يسعدنا حتى لو كان على حسابنا.

ولكي لا أقوض من جمالها وأصالتها فقد طلبت من صاحبي أن يخطها هو بيده على ورقة ليتسنى لي نقلها إليكم بلغته لعلي بذلك أحفظ لكم سحرها.

إليكم النص كاملاً مع بعض التعديلات الفنية الطفيفة:

"أنا شاب أهتم بتربية الطيور، وفي أحد الأيام أعجبني فرخ من طيور الكناري فاشتريته ووضعته في قفص صغير. وبعد فترة من الزمن كبر هذا الطائر وأصبح في ريعان شبابه وكان يغرد بأعلى صوته لدرجة أن جدي رحمه الله كان يضرب على القفص بالعصا من شدة التغريد لعله يخفف ويرحم العجوز، حتى أن جدتي المعروفة بصبرها وقوة تحملها كانت تضيق به وكانت تنهره بكلمة (هُش) لكي تسكته. قلت في نفسي لعله يحتاج إلى أنثى من جنسه. فقررت أن أبحث له عن عصفورة كي أزوجه لها فيهدأ بها. وعندما قتنيتها وأحضرتها معي إلى البيت تبين لي لجهلي ولسوء حظه أنها غير مهيأة للزواج إذ إن ريشها كان قد بدأ يذوي ويتساقط علامة عزوفها عن الزواج، وهذه المدة قد تمتد إلى عشرين يومًا حسب كلام جدي وجدتي. مما اضطرني إلى أن أضعها في قفص منفرد في غرفة مجاورة كيلا يراها. لكنه مع الأسف كان يسمع صوتها على مدار اليوم، وهذا الشيء زاد من عنفوانه ومن تصاعد وتيرة زغرودته ومثلما يقول المثل "أتى يكحلها عماها" وعاش جدي وجدتي فترة صعبة ومزعجة ولولا حبهما لي لكانا حملا القفصين وقذفا بهما معي إلى الخارج، ولكن الله سلم. وقد تأكد لي في نفس الوقت أنه حقاً كان بحاجة إلى أنثى. وحتى أنني عندما كنت أضع إصبعي على أرضية القفص لاختبر قوة رغبته بالأنثى، كان ينزل مسرعاً إلى أرضيته ويغرد بطريقة مختلفة ظناً منه على ما يبدو أن إصبعي هو العصفورة، لأنه كان يقوم

بحركات تبين أنه لا يستطيع الصبر أكثر من ذلك، إذ كان يتعامل مع إصبعي كما يتعامل مع عصفورة وقت التزاوج.

ومرت عليه فترة طويلة من العذاب والصبر والكفاح لأن يرى عصفورته التي كان يحلم بها، وخلال هذه الفترة عندما كنت أضيء البيت لصلاة الفجر كان يبدأ بالتغريد والزقزقة وكأنه يحتفي بقدومي أو بقدوم الفجر لا أدري. ولكنه حينما يبدأ يسمع صوتها الخفيف الذي لا يكاد يُسمع كان يرفع صوته بصخب هادر ويزيد من وتيرته إلى حد معه أطفح شفقة عليه. حتى جاء ذلك اليوم الذي فيه أضأت البيت عند الفجر كما درجت عليه عادتي ولم أسمع له صوتاً ولا حركة ولا نطنطة كعادته وكان ذلك قبيل انتهاء مدة عزوف العصفورة بقليل. أي قبل دخلته بيوم أو يومين، فأسرعت نحوه كي أطمئن عليه، فوجدت نفسي أمام مشهد لن أنساه ولن أسامح نفسي عليه.. لقد وجدته مرمياً على أرضية القفص بلا نفس وبلا حراك بسبب الحسرة التي أصابته على معشوقته التي مات دون أن يراها".

ثم علّق صاحبي على مأساة العصفور قائلاً: "وحزنت العائلة على فقدانه أيما حزن مع أنه كان يزعجهم على مدار الساعة من كثرة تغريده.. فهذه كانت نهاية العشق، الانتحار".

ثم استطرد: "وبقيت العصفورة وحيدة وحزينة على فقدان زوجها الموعود خلف الحائط".

وهكذا انتهت القصة.

أنا شخصياً لا أظن أن العصفور قد انتحر وخاصة أنه كان عصفوراً شجاعاً ومكافحاً إذ كما حكى لي صاحبي كان أحياناً يراه ينزل ويصعد وأحياناً أخرى يهجم على جدار القفص ويمد رأسه من بين قضبانه يريد أن يفلت بالقوة إلى أحضان حبيبته دون أن يعرف اليأس.

لذلك لا أظنه انتحر، فهذه ليست من شيم أهل الكفاح. لكنني أظنه قد مات بجلطة قلبية قاتلة أو إذا شئتم أن تقولوا: أنه طق من القهر فقد صدقتم لقد طق ومات كمدا. والله أعلم.

ولكي أبقى معكم صريحاً. لقد ختم صاحبي قصته بدعائه لزميل لي يسكن معي في نفس الزنزانة، وكان دعاؤه فيه الصدق ممزوجًا بالدعابة. إذ أن زميلي كان معروفاً عنه في أوساط الأسرى بتشوقه للأنثى وبكثرة الحديث عنها كلما أتيحت له فرصة. لكن اسمحوا لي هذه المرة أن أحتفظ بالدعاء لنفسي.

هذه القصة قصة الكناري كانت قد وصلت إلي في اليوم التالي. لكننا في نفس اليوم بقينا مستمرين في الحديث أو على الأصح استمر هو بالحديث وأنا استمع واستمتع وأخزّن دون غربال كما يقولون.

ولأننا لا نملك إلا ساعتين نزهة في الفورة فقد حاول أن يحشد فيها أكبر قدر ممكن من القصص والأحاديث ليشبع بها جوعي.

وقبل انتهاء الفورة بربع ساعة انتقلنا ولا أذكر كيف للحديث عن الانتفاضة وأحداثها. يعني عن الأمور الجدية ووصل بي في حديثه إلى قصة قد نفضتني من الداخل، وجعلتني أتضاءل وانكمش مثل ما يحدث مع

البالون المنفوخ عندما ترفع يدك عن فوهته، وشعرت كالقزم ينظر إلى أعلى نحو بطل القصة الذي لم يتوقف صاحبي بالحديث عنه دون أن ينتبه على ما يبدو إلى ما حل بي من تفاعلات لا بد أن آثارها قد صبغت وجهي بألوان الحياء والتضاؤل واستصغار الذات.

مثل هذه القصة بكل صراحة لم أسمع أختاً لها قط، ولم أقرأ نظيراً لها في الكتب البتة.

كنت أحياناً أسمع بعض الأخبار عن جزء من شهداء الانتفاضة التي كانت تنعش بي الآمال وتغذي في عروقي الثقة بشباب هذا الشعب المؤمن الأصيل. لكن هذه القصة أذهلتني بحق بتميزها إذ أن أحداثها تدور حول آخر ليلة قضاها استشهادي في هذه الحياة الدنيا.

ولقد تسنى لي في النهاية، بفضل الله، أن أسمع هذه القصة مباشرة من فم من رافق هذا الاستشهادي طوال ليلته الأخيرة. أما لماذا قلت عبارة بفضل الله، ذاك لأن سماع القصة مباشرة من الشخص الذي رافقه تلك الليلة يجعلك تستشعر حلاوتها وتتذوق روحانيتها. يا الله ما أجمل تلك اللحظات.

المهم في الموضوع أن هذا الشخص **(أبو أحمد)** كان يعيش معي في نفس القسم. والآن سوف أبين لكم كيف عرفت أنه كان موجوداً معي في نفس القسم:

لأن هذه القصة غزيرة وفريدة فقد استهوتني وسحرتني، فطلبت من صاحبي أن يكرر علي روايتها. لكن كما يقول المثل: "سبق السيف العذل"

حيث أخبرني أن وقت الفورة قد انتهى وعلينا الدخول للزنازين، يبدو أني قد نسيت حالي، وقبل أن نفترق كل إلى زنزانته قال: "إذا أحببت أن تسمعها من الشخص الذي كان معه تلك الليلة فاسمعها من **(أبي أحمد)**". ثم استطرد قائلاً: "لأن **(أبا أحمد)** بعينه هو الشخص الذي كان معه تلك الليلة" قالها وغادرني وأنا ذاهل لأن **(أبا أحمد)** الذي يعيش بزنزانة تقابل زنزانتي أعرفه عز المعرفة، فهو إنسان طيب وخدوم لإخوانه وحيي ويحترم الآخرين إلى أبعد الحدود. وللحقيقة أنه لم يخطر على بالي البتة أن يكون **(أبو أحمد)** ذاك الإنسان الهادئ والودود هو من قام بتلك المهمة في تلك الليلة ويختزن كنزاً في داخله، هذه القصة اللؤلؤة والدرة الثمينة، بل لا ثمن لها، فقيمتها لا تقدر بثمن.

حينها عرفت نعم عرفت أن ليس المحارات وحدها تختزن في داخلها اللآلئ والدرر وإنما أيضاً الإنسان بل في مقدمتها الإنسان. ومن الأمور الصعبة على الإنسان الانتظار وخصوصاً انتظار شيء تتحرق شوقاً إلى لقائه. وعندي في الزنزانة لا يوجد تلفون أو بلفون فأتصل به كي أطفئ القليل من نار الشوق ريثما يطلع الصباح فالتقي به بالفورة. وإنما كان علي أن أحضن رغبة اللقاء وأندس به في فراش الشوق تحت لحاف الانتظار حتى تمضي الليلة بسلام.

وفي فورة الصباح كنت قد التقيت بـــ **(أبي أحمد)** دون أي محاولة مني لأداري فرحتي أو أخفي إعجابي، وكأنَّ لسان حالي يقول: "كل هذا يطلع منك يا **(أبا أحمد)** وأنا يا غلقل الك الله" وهنا تذكرت حكمة ذلك

(الشيخ) الحكيم عندما أراد أن يعلم ابنه قطعة من حكمته قال: "أيْ بني، إذا عرضت عليك جرتان وكان عليك أن تأخذ أحدهما فأيهما تختار.

رد عليه ابنه باندفاع وبدون روية أو تفكير: أتناول الأكبر والألمع يا أبتِ.

تبسم **(الشيخ)** المجرب من تهور ابنه ثم قال: "أما أنا فأتقدم حتى الجرتيْن فأفحصهما ثم أتناول التي فيها الذهب، فليس كل ما يلمع ذهباً يا بنيْ".

يبدو أني تصرفت مع **(أبي أحمد)** بطيش الابن وليس بحكمة **(الشيخ)** فوقعت في وهدة المظهر ولم أعتصم بحبل الجوهر. وكيفما أحسبها أو أقلبها يبقى في النهاية الحق عليّ أنا لأنني نسيت أن الدرر لا تأتي وأنا نائم على السرير وإنما تأتي بالسعي والبحث الدائم أننا تدرجنا بعض الوقت في الفورة لتحريك الدم في العروق، ومن ثم رأينا أن نجلس على الأرض لأن الجلوس أفضل للحديث وخاصة لي أنا فإنه يمكنني تجنيد كل حواسي لتتبع تفاصيل القصة بتركيز أكبر وبقدرة على الفهم والحفظ أعلى وأفضل.

لما علم أن القصة التي أريدها منه قصته هو في تلك الليلة صمت. أنا من ناحيتي تركته لصمته ولم أرد أن أقطع عليه صمته، وصرت أحسب أنني لربما نكأتُ له جرحاً أو أنه يستعيد شريط الأحداث في ذاكرته. لكن هذا كله غير مهم، فبعد برهة الصمت قال لي وهو لا يزال يحتفظ بوقاره وجديته: ربما يعتقد البعض أنني لا أحب سرد قصتي في تلك الليلة، بل

على العكس. فأنا أحب أن أقصها وبشغف لكن لمن يسأل عنها ويهتم بها فقط.

صمت لحظة ثم أردف: أتدري لماذا؟

لم يترك لي مجالاً للرد فأجاب بنفسه قائلاً: لأنها غالية علي وعزيزة على قلبي. قالها وهو يدق بيده اليمنى على صدره. وأظن أنه كان على وشك البكاء لكنه تمالك رباطة جأشه ثم بدأ يسرد قصته علي، وكان سرده لها سلساً وعلى مهل وكان في الوقت ذاته يتابع مدى تأثيرها علي من خلال تركيز نظره على وجهي.

والصراحة لقد كان تأثيرها عليَّ عميق الغور شديد الوقع قوي الانطباع، وإذا أردت الاختصار لقلت إنها فعلت بي فعل السحر، رغم أنها لم تستغرق معنا الوقت الكثير ربما نصف ساعة أو تزيد قليلا. وبعد أن انتهى من سردها نهض والابتسامة تعلو وجهه يعتزم الذهاب. صافحته بحرارة وشكرته ثم غادر وتركني جالساً حيث أنا أعيش مفعول سحرها. وحتى لما قمت لأقضي ما تبقى من وقت الفورة، تحريت أن أمشي لوحدي كي يتسنى لجسمي وروحي وذهني أن يتغذوا من معانيها وإيماءاتها دون تشويش من أحد، وهذا ما حصل.

ثم تعاقبت الأيام والأسابيع وإذ بنا على حين غرة نسمع إدارة السجن وهي تبلغ الأخ **(أبا أحمد)** بقرار ترحيله إلى أحد سجون الجنوب وعلى ما

أظن كان سجن عسقلان[1]. ودرجت عادة مصلحة السجون أن تبلغ الأسير عن نقله بالليل ليتم ترحيله مع ساعات الصباح الأولى كيلا يتسنى له توديع إخوانه ورفاقه في القسم.

المهم أنني حالما سمعت قرار التبليغ شعرت بفرحة وغبطة تكاد تضاهي فرحة لحظات سماعي القصة من **(أبي أحمد)** قبل ما يقرب الشهر، مع العلم أن الأمر الطبيعي في مثل هذه الحالات أن أتجهم حزناً وألماً خاصة إذا كان صديقاً لا أن تنفرج أساريري.

ولما سألني زميلي في الزنزانة مستغرباً عن سر الفرحة انطلقت مني ضحكة متبوعة بتهيدة ارتياح مثل تهيدة الصياد عندما يصيد آخر النهار سمكته الكبيرة التي انتظرها من الصباح ليعود بها إلى بيته وأولاده. وهكذا أنا شعرت بفرحة اصطياد السمكة الكبيرة التي عدت بها إلى زنزانتي. قلت له: يعز علي رحيله مثلك يا صديقي، لكن أنا على الأقل

(1) سجن عسقلان: أنشئ سجن عسقلان المركزي في عهد الانتداب البريطاني كمقر لقيادة الجيش البريطاني في عسقلان ومحيطها وكذلك كسرايا لاستقبال الوفود البريطانية الرسمية، وداخل سرايا عسقلان خصص جناحاً من المبنى كمركز تحقيق و توقيف للثوار.

وافتتح سجن عسقلان المركزي لاستقبال الأسرى الفلسطينيين في بداية عام 1969، وكان الافتتاح الأكثر دموية، من خلال ما عرف بعد ذلك بتسمية "التشريفة".. حيث أن الأسرى كانوا يمرون من وسط طابورين من شرطة السجون من البوابة وصولاً إلى غرف وزنازين السجن، بينما الهراوات تنهال على كامل أجزاء أجسادهم. ويقع في مدينة عسقلان العربية المحتلة، جنوبي مدينة المجدل، يحيط به سور يرتفع إلى حوالي ستة أمتار ومحاط بالأسلاك الشائكة، إضافة إلى أبراج المراقبة ويشتهر بزنازينه الرطبة التي لا تدخلها أشعة الشمس، والحرارة القاسية التي لا تطاق.

اختلف عنك لأنني حزت منه على شيء ثمين "من ريحته" _كما يقال في اللغة الشعبية_ ساعدني على تجاوز لوعة الفراق.

ارتسمت على وجهه علامات استفهام واستغراب وما لبث أن سألني: وما هذا الشيء الثمين ومن ريحته جعلك تضحك بدل أن تبكي رحيله؟؟

ابتسمت ثم أخذته من يده وسرنا معًا نحو سريري الأرضي وجلسنا عليه. وكنت أعرف أنه يتحرق شوقا لمعرفة هذا الشيء. لذلك ولأنني أحبه لم أجاري مراودة نفسي لي بأن علي أن أداعبه و"أزهق روحه" ثمناً للقصة. فقلت مختصراً:

لقد حصلت منه على قصة حقيقية وواقعية يحمر لها وجه الضمير الإنساني وتهز وجدانه هزاً، وحالما تسمعها ستقرر إن كان معي حق أم لا.

زميلي يعرف حق المعرفة أنني إذا أحببت قصة فلا بد أنها غاية في الجمال والروعة. لذلك لم يساورني أدنى شك أن شوقه لاستماعها قد ازداد اشتعالاً لأنه طلب مني أن أقصها عليه في الحال، وفعلاً بدأت أسردها له متوخياً محاكاة **(أبي أحمد)** في السرد إذ كنت أتقصد التمهل والتروي المغموسين بالجدية.

والأمور مشت معي بسلالة وتدفق. لكن في بعض المواقع كنت استشعر أنه قد أفلتت مني جزئية معينة فكان الغم ينمو عندي مطرداً مع ازدياد عدد الفلتات. وعندما وصلت إلى المقطع الذي يتحدث عن محاولة **(أبي أحمد)** في ترغيبه بالدنيا ليقنعه بالتراجع عن العملية شعرت أنني

اضطربت بالتسلسل كوني فقدت بعض التفاصيل الحيوية، فقدت معها الرغبة بالمواصلة كيلا أظلم القصة وأغتال وهجها بالثقوب والشقوق. فتوقفت على الفور ورفضت طلبه بالمواصلة رغم إلحاحه علي، ووعدته أن أُسمعها له في الغد بالتفصيل الأمين دون زيادة أو نقصان.

في داخلي اعتزمت أن أقصد صاحبي الذي كان أول من قصها علي لعله يسعفني بالتفاصيل التي ضاعت مني.

ولما قابلت صاحبي في الفورة في أصيل اليوم التالي تبسم من طلبي وقال: إلى هذا الحد تهتم بها!

هززت رأسي بالإيجاب دونما تعليق مني.

ربت على كتفي بثقة ثم قال: لن تسمع التفاصيل مني، ثم صمت لحظة يختبر جديتي واهتمامي وصبري. لكنه ما لبث أن استطرد كيلا يتركني فريسة للتوتر فقال: ستقرؤها بالتفصيل من الدفتر الذي تركه لي **(أبو أحمد)** قبل أن يرحل.

لا أبالغ إذا قلت لكم أني شعرت عندها أن السعادة فرشت لي جناحيها تحلق بي في فضاء الفرحة. حينها فقط عرفت لماذا الإنسان عندما يأتيه خبر مفرح يقول كي يصف عظيم فرحته "أنا طاير من الفرح" أو ما شابه ذلك. فالفرحة على ما يبدو تتحول إلى رعشة سحرية تسري في أوصال الفرح وفي داخل داخله تطيح عنه ركام الهموم والأحزان أو تدفع عن كاهله مشاغله والتزاماته وأعباءه اليومية عن طريق تسترها بغشاء

النسيان ريثما يرتفع عنه مفعول الفرحة والانتشاء. فالله يكثر مفاعيل الفرحات علينا وعلى شعبنا الفلسطيني.

وكيلا أشطح أكثر من اللازم بعيداً عن الموضوع نعود للدفتر الذي فيه قصة **(أبي أحمد)** من الألف إلى الياء وبخط يد **(أبي أحمد)** نفسه.

عدت بالدفتر إلى زنزانتي جذلا. تصفحته وأسرعت في قنص ما قد أفلت مني عندما سردتها على زميلي البارحة.

ثم تحريت أن أعطيه لزميلي من فور وصولي ليقرأها على مهل كي يعيده إلي بعد صلاة العشاء ليتسنى لي العكوف عليه حتى موعد نومي من أجل أن أتأكد من حفظ وفهم واستيعاب كل تفصيلة وكل مفردة فيها.

وفعلاً بعد صلاة العشاء مباشرة اعتزلت في زاوية سريري وعكفت منكباً على قراءتها على مهل وروية لكن بنهم الجائع الصادي وبلهفة الباحث المُجِد عن مفقود غالي.

وبعد قراءتها مرات عدة صرت أقلب صفحاتها كالمسحور أقرأ مرة في أولها ومرة من آخرها ومرة من وسطها ثم أعود لأولها كما تقلب الأم ابنها الغالي بين ذراعيها بحنو وعطف لا يبارى تقبله تارة وتشم منه رائحة الطفولة تارة وتارة تتحسس جسده الغض دون ملل أو شبع ثم تضمه ضمة من لا يريد أن يفارق. وللتذكير الأم لا تصنع هذا مع ابنها الطفل فحسب بل أن فيض الأمومة يطال ويستغرق حتى الكبار من أبنائها وبنفس الصنيع الممزوج بالعطف والحنان والمحبة. وهذا ما حدث معي أنا شخصياً ومع أخي في السجن في نهايات سنوات التسعينات. إذ أن إدارة

السجن قد سمحت لي ولأخي بزيارة مفتوحة مع أهلي بمناسبة عودة أخي الأصغر أحمد من خارج البلاد إبان تعليمه هناك. حيث جمعتنا إدارة السجن لمدة ساعتين في غرفة حددتها هي لنا حول طاولة واحدة لا يفصل بيننا شيء، وأذكر ذلك المشهد الذي لن أنساه أبداً وذلك عندما شاهدت عبر الزجاج والدتي كيف تسير وهي قادمة إلى الغرفة التي ننتظرها فيها إذ أنها كانت تسير بخطى سريعة تتقدم باقي أهلي لتسبقهم إلى احتضاني واحتضان أخي وكانت كأنها تسابقهم ويسابقونها ولم يكونوا يسابقونها ولم تكن تسابقهم البتة لكنها الأمومة التي فيها تدفعها بعفوية بريئة. وما إن دخلت الغرفة حتى انكببت على يديها أقبلهما بشغف ونهم ولقد أذهلني ما صنع الزمان بهما فقد تغير لونهما إلى حد كان يصعب علي معرفتهما، لولا أنها أمي، إذ اعتدت وأنا في كنف بيتي مع أهلي أقبل يدها يومياً، ثم انتصبت بين يديها خاشعاً ثم ارتميت عليها أحضنها كالطفل الضائع الذي عثر للتو على أمه، ورحت أقبلها من رأسها وخديها حتى شعرت أنني ارتويت. هذا ما فعلته أنا مع أمي. أما هي فصارت بعد أن أشبعتني قبلاً تمرر يدها على رأسي ومن ثم على كتفي ثم تنزل بها على ذراعي وهكذا دواليك دون أن تغادرني نظراتها المحدقة بي كي تتملى مني وتشبع، ولما صرنا نتحدث وبالطبع من دون أن يتوقف لسانها عن الدعاء ودون أن يتوقف قلبها عن البكاء إلى أن أجلسنا التعب واصلت هي (الله يرضى عليها) برقة يدها وحنانها لمساتها على رأسي وعلى كتفي وما تلبث أن تتنقل إلى أخي وتقوم بعمل نفس الشيء معه ثم تعود إلي وتحيطني من

جديد بعيونها وذراعيها. وكانت تتفحصني بنظراتها و تقرأني بلمسات يديها. فلا أطيب ولا أعذب من حب الأم ولمسة الأم وحنان الأم.

بهذه الطريقة الحانية والطفحة لهفة وحباً تميزت علاقتي في تلك العزلة مع الدفتر ومع صفحات القصة. وفي الحقيقة كنت أقلب وأنقب عن المعاني الغزيرة التي تفيض بها أحداث القصة إلى أن وجدت نفسي أحلق بعيداً بخيالي مع هذه القصة إلى حد صرت وكأنني أزرع ورائي في أرض الوطن ألغاماً من الديناميت تفجر الأوهام والهواجس والأساطير الكاذبة التي ما زال أعداؤنا القريبون والبعيدون يحاولون زرعها في رؤوسنا منذ عشرات السنين. إلى أن طالت بعض آثار هذه الإنفجارات المدوية قريحتي فنسفتها بلا هوادة فأنجبت قصة تنبض أحداثها وعناصرها بمعاني تلك القصة العجيبة.

2

من يراه من بعيد يخاله أبله ومن يمر من جانبه يظنه مرجلاً يغلي إذ كان في ذلك اليوم وهو عائد إلى بيته يخلط زفيره الحار مع ترداد هستيري لعبارة: إلى متى.. إلى متى.. مصحوبة بعصبية يده اليمنى التي تتحرك على إيقاع زفيره الغاضب من أعلى إلى أسفل وبالعكس كمن تريد أن تردع عدواً يهدد حياته.

ظلت هذه الحالة العاصفة ترافقه إلى ما قبل وصوله إلى بيته بقليل إذ أخذت تجنح نحو الاعتدال والمظهر المعتاد. أما الداخل فلا يزال يعصف به الغيظ والحنق كالقدر الفوار.

ربما هيبة الأب الذي ينتظره في البيت أثرت على حدة العاصفة واتجاهها أو ربما اعتزم فعل شيء يقلع من داخله أسباب الغضب والهيجان.

فتح الباب ودلف إلى الداخل بطريقة غير مألوفة منه حيث درجت عادته عندما كان يعود في المساء أن يعرّج على والديه يحييهما ويطمئن عليهما.

انتبه الأب على هذا الخرق للعادة من ابنه، نظر إلى زوجته مستغرباً دون أن يكلمها بشيء وجدها أكثر استغراباً وأشد اضطراباً. نهض قلقاً ثم سار نحو غرفة ابنه كي يعرف سبب تصرفه الغريب، وتبعته زوجته وهي تلبس لباس الخوف والقلق على ابنها. وجداه يجلس القرفصاء مسنداً ظهره إلى الحائط ورأسه مدفون بين يديه. ما إن أحس بدخول والديه حتى انتصب واقفاً بحضرة أبويه وسحنته تشي وكأنه خارج للتو من شجار هو المهزوم فيه. اهتز لمنظره قلب الأم وكاد يفطره فطراً، وقبل أن يتكلم الوالد مع ابنه يستوضح منه حقيقة الأمر طلب من زوجته أن تتركهما منفردين خشي عليها أن لا تصمد أمام المفاجآت السيئة كما عودته في الماضي. ولما حاولت إقناعه بالبقاء ريثما يطمئن قلبها على فلذة كبدها التفت إليها بنظرة ورمقها بتلك العين المتفجرة التي تعرفها حق المعرفة حيث عندها لا تجد لها حيلة أمام غضبة الفلاح الذي فيها يرسم جسمه كله بوجهها صرخة مدوية.

لملمت المسكينة شعثها ثم انسلت خارجة والمرارة والقلق يضطربان في قلبها الموجوع ويلفانه لفا.

بعد أن تأكد أنها أغلقت الباب خلفها اقترب من ابنه بمودة وبهيئة تنبع منها عاطفة الأبوة وحنوها. ولما دنا منه وضع يده على كتفه برقة لافتة يريد منها تهدئة روعه وتسكين انفعاله ثم قال بنبرة هادئة عاتبة:

– لم تمر عليَّ وعلى والدتك كما عودتنا يا **(راتب)**.. فلا بد أن هناك سبباً تخفيه عنا.

سكوت **(راتب)** زاد من قلقه وخوفه، وصارت الخواطر المرعبة تتزاحم في رأسه حول ما جرى لـــ**(راتب)**. لكنه لم يسمح لنفسه مجاراة هذه الهواجس والخواطر. وإنما حاول الكرة مرة أخرى مع ابنه مدفوعاً بحنو الأبوة وقلق المسؤولية، قال:

– يا بني فضفض لأبيك لا تخف.. تكلم..

لم يكن **(راتب)** خائفاً هذه المرة من أبيه وإنما خائف على أبيه من نفسه إذ شعر أن صدره كالقنبلة. الغضب والحقد والنفور هي موادها المتفجرة، وأمامها أحد خياريْن: أن تنفجر أو تنفجر.

سحب كتفه من تحت يد أبيه، أدار ظهره له، ابتعد عنه قليلاً ثم استدار نحوه مهتاجاً.

اشتعل الصاعق وجاء الانفجار:

– إلى متى يا أبتِ.. إلى متى سنبقى سخرية للقرى المجاورة.. وهل يعجبك ويعجب أهل قريتي أن نبقى نكتة يضحكون منا كلما مررنا بهم أو هم مروا بنا.

ما إن سمع الوالد عبارات سخرية ونكتة للقرى المجاورة حتى سرت في أوصاله دفقات ارتياح وطمأنينة إذ عرف أن القناديل التي لا تنطفئ هي سبب فورته وثورته فقال في نفسه: "شباب متهور ومتحمس مرة أخرى".

قرية **(راتب)** كانت القرية الوحيدة التي لم يتحصل واحد من أهلها على قنديل لا ينطفئ فيما القرى المجاورة في ذات الإقليم كانت قد حصلت

على قناديلها منذ زمن بعيد واحتفظت كل قرية لنفسها بطريقة الحصول على القنديل، أما أهل قرية **(راتب)** وخصوصاً جيل أبي **(راتب)** والجيل الذي سبقه لم يولوا قضية القناديل الاهتمام الكافي، وقنعوا أنفسهم بالقناديل العادية التي تحتاج دائما إلى زيت وفتيلة وتجديد وصيانة، وكانوا يبررون لأنفسهم بأن الزيت وافر والحمد لله، فلم نتعب أنفسنا وننهكها بالبحث عن القنديل الذي لا ينطفئ.

بهذا المنطق دائماً يواسون أنفسهم وتحت أي ظرف كان. وحتى في المواسم الشحيحة في إنتاج الزيت لما كانوا يتعرضون فيها للتعيير والإهانة عندما كانوا يقصدون شراء الزيت من القرى المجاورة ليرصدوا الجزء الأكبر منه لقناديلهم العادية كانوا يبتلعونها ويجمعونها ولا يأبهون أو ينتفض لهم غضب وكانوا يبدون لأهل القرى المجاورة أنهم يلبسون جلوداً سميكة من البلاهة وعنيدة من البلادة. وعلى هذا النحو سارت حياتهم الرتيبة.

بعد أن حدس الأب السبب الحقيقي وراء غضبة ابنه تقدم نحوه مرة أخرى ووقف قبالته وجهاً لوجه ثم سأله كي يتأكد من حدسه:

– هل تعرّض لك أحد اليوم بسوء؟

أجابه **(راتب)** بعصبية ثائرة:

– الإهانة مرة أخرى يا أبي.

لبرهة لاذ بالصمت ثم استطرد:

– لقد حاول أحدهم إهانتي وتعييري بعجزنا عن الوصول للقنديل الذي لا ينطفئ.

صمت من دون أن تغادر نظراته الحانقة والمتهمة والده. إذ كان يرى به المسئول عما يعانيه ويؤلمه لأنه آمن أن لو فكر أبوه بجدية في البحث عن القنديل لجنبه كل هذه الإهانات وكل هذه التعاسات.

ولما أراد أن يستمر بالحديث سابقه أبوه سائلاً:

– وماذا فعلت أنت؟

– لقد ضربته حتى كدت أقتله وشعرت أنني أثأر لنفسي ولكل أهل قريتي.

وجم برهة ثم استطرد:

– صحيح أنني رضخت رأسه حتى شج ونزف دمه، إلا أنه هرب ونجا من الموت بين يدي.

ثم أخذ صوته يحتد ويصطخب:

– لكنه خلّف وراءه شخصاً مجروح الكرامة مهدور الكبرياء.

وكررها أكثر من مرة وهو يضرب بيده اليمنى على صدره إلى حد تبدى للناظر أنه يتوثب للانقضاض على أبيه، وبدا لأبيه كأنه دخل في نوبة جنون عمياء أو ما يشبه الهذيان.

جاشت مشاعر الشفقة والعطف على ابنه من جديد. اندفع معها صوبه ثم ضمه بين ذراعيه تاركاً ليديه الحق في أن تمنحاه لمسات عطف الأبوة

وحنانه وصار يفيض عليه أرق الكلمات وأكثرها استدراراً للعاطفة لكنه في نفس الوقت أراد أن يكون معه صريحاً وواضحاً.

أخذه بلطف وعناية إلى الكنبة وجلسا عليها، ولما خال منه استعداده للإصغاء قال وكأنه يهمس همساً:

– يا **(راتب)** ما الذي لا يعجبك بالقناديل التي لدينا.

لاذ بالصمت قليلا وأخذ يتفرس وجه ابنه. وبعد لحظة أردف:

– أعتقد أن الأفضل لك ولنا أن نقبل بها رغم تكاليفها ومتطلباتها من التزييت وتجديد الفتيلة والصيانة الدائمة.

توقف ثم تابع:

– هذا قدرنا ويجب أن نرضى به ولا نعبأ بإهانات الآخرين.

ثم سكت ولم يسكت غضب ابنه، فكانت كلمات أبيه تنصب على قلبه كانصباب الزيت على نار مشتعلة أصلاً فازداد غضبه اضطراماً وحنقه التهاباً على عكس ما توخى أبوه. وأخذ يصرخ في داخله صرخات رجاجة وصلت ارتداداتها إلى أرجاء جسمه كأنها زلزال:

– قدرنا!.. منذ متى العجز قدر؟.. وهل القدر أن أقبل الإهانات وأسكت يا أبي؟".

ودّ لو استطاع أن يصرخ بها بأعلى صوته في وجه أبيه، لكنه اختار رسن السكوت على فتيل الانفجار.

انخدع الأب من سكوت ابنه وظن أن ما أمامه حبة تين شهية تقطر عسلاً تدعو قاطفاً يأكلها، ولم يسعفه حدسه هذه المرة بأن ما أمامه جمرة

غضب ملتهبة على وشك الانشطار لشدة اتقادها. لذلك ازداد طمعاً في إقناع ابنه فاستطرد مُتمادياً:

– ثم لماذا أنت من دون شباب القرية أزعجك هذا الأمر؟ وهل تريد لوحدك أن تعيد للقرية كرامتها وسمعتها وترفع عنها الإهانة والعار كما زعمت؟

توقف هنيهة ثم تابع:

– ثم عليك أن تقبل ما قبلنا به وأن تعيش مثلما نعيش فهذا قدرنا.. هذا قدرنا.

أخذت أصداء كلمة قدرنا ترن في رأس **(راتب)** بازدياد مطرد ولم يعد يسمع غيرها.. اضطرب، التهب، انفجر. وضع كفَّيْه على أذنيه وصار يصرخ بصوت هادر:

– كفى كفى..

ورأسه يذهب يمنة ويسرة مع أصداء الرنين.

لم تصبر أمه على البقاء خارج الغرفة بعد هذا الصراخ، وهي أساساً لم تغادر الباب من الجهة الخارجية من اللحظة التي أخرجت فيها رغماً عنها.

فتحت الباب وهرعت مفزوعة نحو ابنها وهي تتمتم بكلمات لا يفهمها إلا الأمهات. ثم أرادت أن تأخذه بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها إلا أنه استعصى وتمنّع مستعصماً بغضبه وكبريائه.

لكن الأم لم تيأس وطفقت تمسح منكبه وطرف ظهره الأعلى بيدها اليمنى تذكر اسم الله عليه وتقرأ المعوذتين متوسلة إسكات غضبه وتهدئة روعه دون أن يتوقف لسانها عن الطلب منه أن يكف وأن يهدأ. فكانت لمساتها ودعاؤها وكلماتها عليه كقطر الطل على جمرة الموقد التي لم تطفئها لكنها أخمدت لهيبها.

وحالما رأت أن الهدوء بدأ يعود أدراجه إليه أخذته معها إلى غرفة مجاورة كي تبعده عن أبيه الذي صار يشتعل خيبة وقلقاً والذي بدا لها كمن لا يعرف كيف يتفاهم مع ابنه الشاب.

سرها كثيراً سرعة استجابة ابنها لها، ما إن جلست إلى جانبه تنضح عليه من حنانها ودعواتها طلبت منه بطريقة أم لبقة مجربة أن ينفس لها عما يعتمل في صدره وما يدور في خلده.

لم يتأخر هو بدوره من إنزال ما لديه من حمولة لأنه آمِل إن تفهمته وانحازت إلى موقفه وإلى جانبه أن يغترف من حكمتها ومن خبرة الحياة التي لديها من أجل أن يجعل منهما منارات هداية مبثوثة على امتداد مشواره الجديد.

كانت كلماته إليها تخرج من قعر ألمه مدفوعة بحرقة المتحمس المتلهف لاستقطاب مناصرين. وكانت تقع في قلبها موقع المتفهمة المتألمة مما دفع بومضة سريعة إلى أعلى سطح ذاكرتها كدمات الألم الممزق عندما كانت تتعرض في صباها هي الأخرى إلى نفس الإهانات والتهكمات المذلة لما كانت تلتقي على عين الماء مع بعض نساء القرى

المجاورة، وكيف أنها كانت تقضي الجزء الأكبر من كل ليلة أهينت في نهارها بلا نوم تتلوى وهي تجاهد في غسل ذاتها وروحها والأنا التي فيها من بقع الذل ومواطئ الإهانات التي تلوثت بها وذلك في سبيل أن تتمكن من استقبال الصباح وهي إنسانة مؤمنة لتبقى إنسانة كريمة غير مهانة. وكانت تقول: "قدرنا في هذه القرية أن نجاهد لأجل بقاء إنسانيتنا وكرامتنا فينا بعد أن خلقنا الله تعالى مكرمين".

شعار اختطته لنفسها وقتئذ تنافح عنه بلا هوادة وبكل شجاعة. لكنه مع الزمن تآكل شيئاً فشيئاً وانسحب وغلبت الكثرة الشجاعة: الكثرة التي أرادت مجاراة الحياة ومشاغلها وألِفت روتين اللون الأسود. اللون الذي يواري بقع الوسخ ووسخ البقع وعورات البشر.

هزت رأسها متفهمة متألمة حزينة متأسفة على أوجاع ابنها لأنها أدركت منذ زمان أن الأسود في قريتها غلب الأبيض وأن الكثرة غلبت الشجاعة إلا إذا صارت الكثرة شُجاعة أو سارت الشجاعة إلى الكثرة كما كانت تعتقد في ذلك الزمان.

تنهدت وأخرجت الآه من صميم قلبها ثم نظرت إليه قاصدة أن تقول لكنها قالت ما لم تقصد، قالت:

– لقد أوغلت في أعماقي ونكأت هناك جراحي.

ثم أطرقت تفكر وتتعمق في دهاليز الماضي. حينها وقر في قلب **(راتب)** بأن الأم مصطفة إلى جانبه وتنسج على منواله ومتفهمة لآماله ولآلامه.

ود في سريرته لو أن والده سبقها إلى جانبه وبسط عليه رعايته.

اقترب هذه المرة من أمه متوددا وطامعاً ثم قال:

– كنت أعرف يا أمي أنك ستفهمينني و....

لم تتركه يُكمل ويسترسل قاطعته برفع يدها وملامح الجد والحب يكسوان وجهها ثم قالت:

– اسمع مني يا بني.. الله يرضى عليك

توقفت. أمعنت فيه النظر ثم أردفت:

– الذي تطلبه بعيد ومجهول وثمنه غال. وأعلم أن ما تطلبه لا تطلبه لذاته فحسب إنما أيضاً لقيمته ومعانيه بسبب ما حل بقريتنا.. لكن يا بني إن هذا المطلب المجهول المروم وعر الطريق ومجهول المكان واكتشاف المجهول كما علمتني السنون يمر عبر بوابة المغامرة.

توقفت لحظة. أخذت تتجرع جرعات من الهواء كي تقوى على المواصلة. ثم استطردت:

– والمغامرة يا بني تنطوي على مخاطر وكمائن قد لا تقوى عليها.

سكتت ثالثة ثم بمكر الأنثى الأم نحو الابن تابعت وهي تمد أحرف الكلمات مداوعلى مهل كي تزرع فيه وتنبت ما تشتهي هي:

– ولأنك لا تزال شاب في بداية عمرك والحياة أمامك طويلة يجب أن تلتفت لمستقبلك وشأنك ضمن الموجود والواقع لا تفكر بالمغامرات واستهداف المجهول.

ثم أرادت أن تقول له تزوج وابن بيتك الخاص بك وأنجب أطفالاً مثل باقي شباب القرية، وقد أضمرت في نفسها تزويجه بنت أختها الجميلة لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة وتوقفت عن الكلام بما أحسته وشاهدته على ابنها من شحوب وتقطب ومن حرارة أنفاسه المتسارعة التي أخذت ألسنتها تصل إلى مقدمة وجهها.

عمق الخيبة التي أحس بها (**راتب**) من أمه كان بمقدار علو آماله التي علقها عليها. شعر أن الدنيا انسدت في وجهه وأنه بات وحيداً يعيش غربة لم يشعر بها من ذي قبل.

مشاعر وأحاسيس انجدلت في ضفيرة واحدة.. التفت حول عنقه.. تضغط عليه.. أحس بالاختناق.

بهيئة مستفزة ومستشاطة غضباً وقف بغتةً رمق أمه بنظرة حانقة لكنه أمام أمه التي يحن إلى عطف صدرها دائماً وإلى لمسة يدها ويحبها بكل جوارحه، حبس صرخة حنق مضطرمة وكبح انفعالاته ولجمها عن الانفجار ثم بحركة مندفعة تركها وتوجه بخطى سريعة إلى خارج البيت دون تردد أو تلفت وصار يقاوم دمعة أوشكت على السقوط كمن يقاوم بلباً مضغوطاً بماء مندفع ينذر بالفيضان.

أما الأم بقيت جالسة مكانها تدفع عن نفسها الهم الذي راح يقضمها من كل جانب. هم ابنها الثائر وهم زوجها الغاضب.

بعد أيام من أحداث تلك الليلة مع أمه وأبيه وعودته إلى حضن أسرته استطاع (**راتب**) رغم صغر سنه، إذ كان يشق عامه العشرين، أن يمسك

صفحة تلك الليلة ويطويها إلى غير رجعة، وصب كل تفكيره على القنديل الذي لا ينطفئ: كيف يحصل عليه؟ وما هي أفضل الطرق وأقلها تكلفة؟ والسؤال الأهم الذي استحوذ عليه أكثر من كل سؤال آخر كان: أين هو؟ وهل هو بعيد أم قريب؟

أسئلة كانت تدور في رأسه تتوالد وتتكاثر دون توقف أو استراحة وكانت ترهقه وتستنزف تفكيره، وفي بعض الأحيان كانت تحدث تشققات في جدار حماسته وصلابته تدلف عليه منها خواطر سريعة مصطبغة بلون الليل الدامس بأن يكف عن مغامرته ومبادرته وأن يعيش مثله مثل باقي أهل قريته وشبابها: زواج وأولاد وعمل منتظم واستقرار. لكن سرعان ما تشتعل فيه الجذوة من جديد فتدفع هذه الخواطر من رأسه دفعاً وتطردها إلى خارج أسوار عقله. ثم يعود بحماسة أكبر وبرغبة أشد إلى التفكير بالقنديل والحديث عنه مع من يخال لديه أذن صاغية تسمعه.

لم تمر أيام كثيرة حتى صار القنديل اسماً تمضغه ألسنة الناس في القرية أكثر من أكلها لوجبات الطعام. وتوزع الناس حوله إلى فئتيْن، فئة ترى ما يرى من أمر القنديل، وفئة، وهي الأكبر كانت ترى أن لا جدوى ولا فائدة من البحث العقيم عن القنديل المجهول والمستعصي. ثم لم تتوانى هذه الفئة من اللمز والغمز بـــ**(راتب)** تعتبره يُفسد شباب القرية وعقولهم بالأوهام والركض وراء السراب. وما قد يفترسهم من بلاء ومصائب جراء مغامراتهم اللامعقولة بدل أن ينصرفوا إلى الفلاحة والزراعة وبناء البيت والأسرة.

كانت هذه التقولات تصل إلى أذان **(راتب)** سريعة وبيسر لكنه لم يكن يأبه لها كثيراً ولم تترك عليه أثراً إلا كما تترك قطرات الندى على ورق الشجر بعد أن تنزلق عنها. وخصوصاً أن التفاف بعض شباب القرية حوله يشاطرونه الرأي والمشاعر كان يساعده على التصميم في المضي قدماً في مشروعه دون التفات إلى الوراء.

وعندما كان أحد المعارضين لفكرة البحث عن القنديل يناقشه حول الموضوع لم يكن يتجهم له أو ينزعج منه بل كان يرى فيها فرصة سانحة لأن يحاول إقناعه وأن ينقله إلى صف الباحثين عن القنديل.

لكن المشكلة التي ظلّت تواجهه ولم ينجح حتى الآن من اختراقها كي يتسنى له الانطلاق نحو هدفه، وكثيرا ما كان ينقشها مع من يؤيده هي نفس المشكلة التي رافقته منذ البدء: كيف يبدأ؟ ومن أين يبدأ؟ والى أية جهة يسير؟ وأين هو؟ أسئلة تشابكت وتداخلت حتى تلبسته كالثوب الذي لا بد منه، فلم يعد ينخلع عنه لا في ليل ولا في نهار.

وجمة هي المرات التي كان يشعر بها كالتائه في وسط صحراء شاسعة يبحث أحياناً في جيوبه عن البوصلة فلا يجدها وأحياناً كثيرة لم يكن يجد جيوبه. ومهما مشى أو تنقل يظل يشعر أنه ما زال مكانه يرى نفس الرمال ويرى نفس السماء. قاسية مضنية محبطة هي هذه اللحظة. عندما تشعر أنك فقدت الاتجاه وضيعت المرشد.

لم يكن يحتكر **(راتب)** عناء البحث عن الأجوبة لهذه الأسئلة المنهكة لنفسه وإنما كان يشاركه فيه من اعتنق أفكاره وخالجته نفس المشاعر

والتطلعات. فكانت السنديانة الكبيرة والعتيقة بعتاقة امرأة كبيرة شيخة جليلة استدبرت المائة عام منذ أعوام كثيرة. كانت صورة السنديانة في قلوب محبيها كهذه العجوز وهي تجلس في مصلاها ترفع يديها إلى السماء في صلاة استسقاء تسبح ربها وترجوه الغيث وتشع منها النضارة والخشوع والوقار والهدوء والكبرياء والخضوع.

هكذا كانت السنديانة لأهل القرية. امرأة تصلي وتسبح وتدعو في طرف القرية. فلا عجب أن تكون محل اجتماعهم شبه اليومي.

وغالباً ما كانت ترتفع أصواتهم عند الاختلاف لدرجة يحسبهم المار أنهم في أتون شجار وأحياناً كان ينفض اجتماعهم عن لا شيء يحرزون فيه تقدماً ولو بسيطاً نحو الهدف. ورغم ذلك يكررون الاجتماع بحمية وغيرة لا تصدق وكأن موضوع القنديل صار حجر جذب يهوي بأفئدتهم إلى السنديانة للاجتماع حوله.

وثمة شيء كان يجعل **(راتب)** يتقطر غيظاً من زملاء الفكرة حيث تكرر أمامه أكثر من مرة نكوصهم عند تنفيذ الأفكار العملية إذ كانوا عندما يصلون إلى فكرة عملية من شأنها أن تدفع بهم إلى الأمام يتقاعس معظمهم عن تطبيقها بحجج شتى. وكم كانت تنهكه محاولاته لفهم هذا المفارقة العجيبة التي لديهم: حماستهم للفكرة من جهة وخذلانهم لها من الجهة الأخرى.

ففي إحدى المرات أعجبتهم فكرة تطوافهم معاً على بيوت كبار السن في القرية لكي يقطفوا منهم ثمار تجاربهم وخبراتهم من أفكار وآراء لربما

تعينهم في الوصول إلى القنديل. لكنهم عند لحظة الانطلاق في اليوم التالي وجد **(راتب)** نفسه مع زميلين فقط فيما الباقي قد تغيب عن الحضور وعددهم كان يزيد عن العشرة. فوأدوها قبل أن تقف على قدميها عندها كرر **(راتب)** في نفسه: "يجب ألا انخدع بالحماسة حتى ولو كانت محببة. على الأقل ليس قبل أن تُجرَّب". وعلى الرغم من كل تلك وغيرها من المعوقات فلم يكن يرقى إلى رسوخ الفكرة لدى **(راتب)** وإيمانه بها أية تصدعات أو أية هلهلة. لأنه في نهاية المطاف تبقى مسؤولية الحصول على قنديله تقع على عاتقه لوحده. إذ أن قانون القنديل ينص أن لكل فرد قنديله الخاص به، ومسئولية العثور عليه تبقى منوطة به عينه.

لكن **(راتب)** كان يريد وبصدق أن يسعى كل فرد من أفراد قريته للحصول على قنديله الخاص، لذا لم تكن مهمته أن يبحث للناس عن قناديلهم بل أن يحملهم على أن يسعوا هم للحصول عليها. وهذا ما كان يقوم به.

كان **(راتب)** يحرص أن يبقى القنديل حديث الناس صغيرهم وكبيرهم حتى لو اقتصر موضوع القنديل في هذه المرحلة في إطار الحديث فقط لا يتجاوزه إلى الفعل والحصاد لأنه كان يؤمن أن كثرة الحديث عنه حتماً ستولد من يجد ويجتهد ويثابر حتى يظفر بالهدف. وكان يرى في الحديث عن القنديل كالرحى التي لا تتوقف عن الدوران حتى لو لم يكن فيها حبا تطحنه لأنها تريد دائما أن تستدعي انتباه الناس إلى وجودها والى حاجتهم لها وتهتف بهم أن يأتوها بالحب تطحنه وإلا بقيت مقعقعة تطحن لا شيء.

كان اجتماع السنديانة أحد أهم طواحين القرية بالنسبة لـــ(**راتب**)، ولذلك كان هو أكثر زملائه حرصاً على الاجتماع تحتها، وحدث أكثر من مرة أن احتد بهم الحوار إلى الأسحار وهم يتناقشون ويتجادلون دون ملل أو كلل حتى لو كانوا يعودون على نفس الحديث أكثر من مرة في كل يوم علماً أن معظم اللقاءات لم تكن تخلو من جديد. لكن تراكم هذا الجديد لم يكن يرقى إلى حد الوصول إلى طريق القنديل. إلى أن جاء ذلك الاجتماع المعتاد وتحت نفس السنديانة وخوضهم نفس النقاشات حول نفس الموضوع: القنديل وطرق العثور عليه، وكعادتهم كان يتخلل تلك النقاشات جلبة الاختلاف وصخب النقاش من نفس الحناجر وبنفس الحماسة إلى أن أطل من بعيد رجل مسنٌّ يمتطي دابته، ومن ينظر إليه وهو مقبل يخاله من هيئته شاباً شديداً إذ كان يجلس على متن حماره مستقيم القامة رافع الرأس ومسمراً وجهه إلى الأمام.

لو مرّ من داخل قرية (**راتب**) لطرق الشك أبواب سرائرهم أنه يختال ويتكبر عليهم ليريهم علو شأنه وشأن قريته التي أهلها منذ زمن بعيد قد عثروا بجهودهم الذاتية على القناديل التي لا تنطفئ. لكنه في حقيقته لم يكن كذلك بل كان رجلاً متواضعاً كريماً يحب أن يعم الخير على الناس جميعاً دون تمييز، ويحب العمل رغم طعنه في السن لأنه كان يرى بعمل الخير أفضل الفضائل ويدرك كذلك أنه بمقدار ابتعاده عن العمل يقترب من الموت لكن ماذا بوسعه أن يصنع إذا هو لا يعرف أن يسير أو يركب إلا وهو منتصب القامة، بقدر ما تتيحه له صحته، مرفوع الرأس.

كان هذا الرجل يقصد قرية أخرى بغرض التجارة، ولكي يصلها عليه أن يمر عبر الطريق التي تمر بمحاذاة قرية **(راتب)** من جهة السنديانة، وكان هو الآخر مسحورًا بها معجب بجلالها، وكان في بعض الأحيان يحط رحاله تحتها ريثما يأخذ قسطاً من الراحة يلتقط فيها أنفاسه أو يتناول لقيمات يقمن صلبه يمكِنَّه بعدها من مواصلة المسير.

هذه المرة لم يكن يشعر أن ثمة حاجة تستدعيه لأن يستريح تحتها، اضمر أن يتملاها وينحني أمام زهوها وعنادها ثم يواصل سيره. لكنه كلما أخذ يقترب منها كان يصل إلى أذنيه أطراف أصوات.

شعر أن الأصوات أو أصدائها تنبعث من تحت تلك السنديانة إلا أن المسافة ما زالت تمنعه من أن يصنع منها جملاً مفيدة.

ولما صار قريباً منها بدأ يلتقط بعض الكلمات، ليس لأنه يريد التقاطها لكنها كانت هي تسقط على أذنيه دون استئذان. وكان مما سمع كلمات قنديل، وكرامتنا وكلمات أخرى لم يستطع منها أن يفقه الشيء الكثير، لكن حنكته ومعرفته المسبقة أن هذه القرية منكوبة بعجز أهلها بالعثور على قناديل لا تنطفئ، استطاع أن يبني تصوراً عما يدور، مفاده أن هؤلاء الشباب الذين بات يراهم عن قرب متذمرون مما ورثوه من آبائهم ويبحثون عن الطرق التي تؤدي بهم إلى القناديل المنشودة والكرامة المفقودة.

في داخله قد شبت غبطة عذبة من غضبة هؤلاء الشباب وضيقهم بوقعهم المرير. لأنه بحكمة **(الشيخ)** المجرب يعرف أن تذمر الشباب

وغضبهم روافد ثورة. يعني بداية الطريق للوصول إذا توشحت الغضبة سيف الإيمان و الوعي. والنقاش والجدال الهادف والحر عمود خيمته.

حينها قرر دون تردد أن ينعطف نحوهم ويجالسهم.

ما أن رأوه عن كثب حتى عرفوا للتو أنه من قرية غريبة. وعلى الفور أغاظهم شكل هيئته، وأسرع بهم الظن أنه يشمخ عليهم ويتعالى، ولم يخطر ببالهم أن يربطوا ذلك بجوهر الرجل وخامته.

ولما قرر أن ينزل بجانب السِّروة التي رآها أنسب السرو المحيط بالسنديانة ليربط دابته بخصلة من فروعها، رأوه كيف ينزل بصعوبة وعناء، عندما عرفوا كم هو كالجدار العتيق الموغل في عتاقته الآيل للسقوط، لا تنفع معه ترميمات تصلحه أو أوتاد تسنده لكنه يكابر مكابرة من يعز عليه السقوط بعد طول شموخ.

طرح عليهم السلام. ردوا عليه السلام بطريقة "أرنا عرض أكتافك" ولم يرحبوا به كما اقتضت عادتهم الأصيلة، وظلوا واجمين ينظرون إلى بعضهم البعض.

لم تعجبه قلة أدبهم وتشنجهم. لكنه تفهم وقدر حالهم وأخذ يجول بنظره عليهم يتصفح سحناتهم ويكتشف أعماقهم. وحدق النظر بـــ **(راتب)**، لربما أن ثمة شيئًا ما قد استدعى اهتمامه فيه أو لربما من منظره خاله قائدهم.

لم يرق للشيخ وجومهم ولم ينتظر أن يكلموه. بادرهم:

– القنديل الذي لا ينطفئ يؤتى ولا يأتي. أنتم سيروا إليه.

لقد خالط كلام **(الشيخ)** مشاعر الشباب، فهم في داخلهم يودون لو أنه يستفيض في حديثه عن القنديل دونما طلب منهم، رجاء أن يسعفهم في جرحهم النازف.

لكن كرامتهم المكلومة تأبى عليهم الظهور في موقف المسترشد والمستنصح فيما خصمهم يكون هو المرشد والناصح. ولولا بياض شيبته ورعشات يديه والأخاديد التي حفرتها صروف الدهر بوجهه لأوسعوه ضرباً لا تُمحى آثاره ولا تنساه أوصاله لكنهم صاروا ينظرون إليه نظرات مستريبة ومتسائلة: أهو إمعان منه في إهانتنا وإظهار تفوقه علينا أم... أم ناصح أمين؟؟

لو أنهم استنطقوا ضميره لعرفوا أنه مشفق عليهم متعاطف مع ثورتهم، ولو أنهم أشعلوا فوانيس عقولهم وأخمدوا نيران غضبهم لاغترفوا من حكمته واستمالوا الحكمة إلى صفهم.

ولو كان قانون القنديل يسمح بإهداء القناديل التي لا تنطفئ لما تردد برهة في إهداء قنديله إلى أحدهم.

في سريرته ود لو يستطيع أن يفصح لهم عن رغبته الصادقة وما يعتمل في صدره حيالهم. لكن صمتهم المريب وضمور الثقة بينهم أقنعه بالإحجام كيلا يزيد الوضع تأزماً أو يشتعل توتراً.

ورغم استمرار قلة أدبهم معه إلا أن قلبه ما زال مفعماً بالتعاطف معهم وبالرغبة لأن يعثروا على قناديلهم. لكن ماذا بمقدوره أن يفعل وهو لا يلقى منهم إلا الصدود والوجوم.

أطرق ثم وضع يديه متشابكتيْن وراء ظهره. لملم نفسه ثم بدأ يسير بخطوات منهكة نحو دابته.

ما أن بدأ يبتعد عنهم وهو مقوس الظهر هذه المرة حتى صاروا يتناجون تهكما: "القنديل يؤتى ولا يأتي أنتم سيروا إليه وكأنه جاءنا بجديد.. ما أراد إلا إهانتنا".

(راتب) هو الوحيد الذي لم يشاركهم الهمس وكان مغرقاً في التفكير بما قاله **(الشيخ)**. وأخذت تلح عليه فكرة أن يناديه ويستبقيه كي يتناول معه موضوعه الشائك ويعامله كما تمليه عليه أخلاقهم في استقبال الضيوف وتوقير الكبير، وقال في نفسه: "الخلل فينا وليس فيه وهل جزاء من ينجز وينجح إلا الضغينة والحسد".

ما أن كادت براعم هذه الأفكار النابتة في رأسه تتفتح وتزهر حتى طاولتها السنة لهب غرائزه المعتمة فحولتها إلى كومة هشيم أذرتها في أدراجها رياح الطيش والتهور.

هذه الأفكار طافت في رأسه في لحظات قليلة لكنها كانت لحظات كافية لأن يقطع بها **(الشيخ)** خطوات نحو حماره متعالياً عما تناهى إلى سمعه من جهلهم. وفي لحظة سمو نبله. وقف شامخاً. استدار نحوهم ثم وجه كلامه إليهم جميعاً وهو يشير بسبابة يده اليمنى دون أن تفارق نظراته وجه **(راتب)**:

"أيها الشباب" ود من كل قلبه أن يقول لهم يا أبنائي لكن استقبالهم له لم يترك له مجالاً يندفع به مع عواطفه فقال لهم:

– "اسمعوا ممن أكل الكدح من راحتيه والسهر من عينيه"

صمت هنيهة ثم استطرد مقررا:

– "من سار وصل ومن بادر ظفر".. "أيها الشباب، القنديل الذي لا ينطفئ موجود في كوخ.. سيروا إليه".

ثم بهمة سريعة استدار مرة أخرى كيلا يفسح مجالاً للحديث، واستأنف الخطو نحو حماره، واختار أن لا يمتطيه وإنما أمسك برسنه وقاده خلفه دون أن يلتفت إلى الوراء.

وبعد أن قطع مسافة أبعدته عن السنديانة واطمأن إلى عزوفهم عن اللحاق به توقف ثم استدار نحو القرية يجيل النظر بتلالها التي كانت تبدو له كقبضات أيد انزرعت أزنادها في الأرض تحيط بها من كل جانب كأنها قوتها الضاربة المتوثبة للانقضاض على من يهدد وجودها أو يطمع بأهلها، وأكثر شيء كان يثير إعجابه في هذه القرية أشجار الزيتون والتين والرمان وبعض أنواع أشجار الحمضيات، والبقع الموزعة من شجر الصبار الذي يتخلل بيوت القرية أو تلك التي تحف شوارعها. فكان يصفها بقطعة خضراء، ليست من هذه الأرض يسبح اسم الخالق الذي حباها كل هذا الخير و الجمال، مرصعة ببيوت بعض أهلها فتشكل لوحة فنية من أروع ما تكون اللوحات، فلا عجب أن تكون له مصدراً حيوياً لسد جوعه إلى الجمال وخصوصاً جمال الطبيعة. وأحس برغبة أن يبني كوخاً صغيراً في موقعه حيث يظل يطل منه على جمال اللوحة ووهجها

والآيات الباهرة للخالق فيها، تتغذى منها روحه فتمتليء تحميداً و تسبيحاً وينتشي منه لباب نفسه.

لكنه ببصيرة من أعطته الحياة حكمتها أدار من فوره لهذه الخاطرة ظهره وأطبق عنها خياله.

واكتفى أن يبقى وفياً لسيرته مع هذه اللوحة الساحرة بأن يحصل منها على جرعة أو رشفة تثمله كلما مر من هذه الطريق المحببة إليه.

أقفل جفونه كمن يريد أن يحرس لوحة القرية في داخل مقلتيه ترافقه على الأقل حتى وصوله. لكنه في الحقيقة كان يريد أن يقطع نظره عنها مرّة واحدة كي يفرض على عينيه التي تشده إليها وتغالبه على التريث وتطلب المزيد، الاكتفاء بما قد اغترفت.

فجأة مال نحو اليمين وأخذ ينحدر صوب الوادي الموصل إلى القرية المجاورة التي تشكل أولى محطات تجارته في هذه المنطقة.

بقيت كلمات (**الشيخ**) الأخيرة ترن في رأس (**راتب**) بعد انصرافه دون توقف، مع أن معظم زملائه تعاملوا مع هذه الكلمات بخفة وبلا إعمال عقل وكأنه كان يقول هذراً أو لغواً. أما هو فقد حمل كلماته على متن الجد والاهتمام رغم أن (**الشيخ**) لم يبين لهم ما علاقة الكوخ بالقنديل، ولم يقل لهم أين هو هذا الكوخ؟ ولم يقل لهم إذا كان الكوخ الذي أشار إليه يضم قناديل الجميع أم لكل قنديل كوخ اكتفى بما قال بل ذهب بقوله هذا إلى أبعد مدى تسمح به قوانين العثور على القنديل. ولم يقصد أن يطرز حولهم لغزاً لا يخرجون منه أبدا كما ذهب بعضهم بشططه.

أحس **(راتب)** أن ثمة خيوط نور تنطوي عليه كلماته رغم الغموض الذي كان بادياً عليها من أولها إلى آخرها والتي كانت أقرب إلى الرمز والإيحاء منها إلى الوضوح والجلاء.

برق من بين جوانحه شعاع بصيرة أنه لا بد أن تفضي به هذه الخيوط إلى تحقيق ما ينشدونه أو على الأقل ما يسعى هو بكامل الجدية لنيْله إذا ما تتبع أطرافها التي تركتها وراءها هذه الكلمات.

التفت نحو زملائه يستطلع مدى وقع كلام **(الشيخ)** عليهم. وجدهم مستمرين بهزلهم وسخريتهم من كلماته دون أن يخطر ببالهم أن يفكروا بما قال.

ولما لفت انتباههم إلى أن **(الشيخ)** قد تحدث عن أشياء عملية: عن السير والاجتهاد، وعن الكوخ، وأنه لم يغرقهم في تخيلات وأوهام، وأن هذا بحد ذاته جدير بالتأمل والتحليل انبرى أحدهم قائلاً:

– أنا شخصياً لا أثق به ولا بكلامه.. وكلنا يعرف أن القرى سعيدة الحظ بحصولها على القناديل التي لا تنطفئ حريصة على عدم نقل سر القنديل إلى القرى المتأخرة مثل قريتنا. فلم نصدقه بما يقول؟.

صمت ثم نزع نظره عن **(راتب)** وأخذ يدور به على باقي زملائه ينتظر منهم تأييده بما ذهب إليه.

– أنا أؤيد كلام زميلي.

هتف من بعيد زميل آخر. وبعد وقفة سريعة عن الكلام استطرد كيلا يفقد انشداد انتباه زملائه إليه:

– ربما وهو مقبل علينا سمع جزءاً من حديثنا فقرر أن يخدعنا بزي الناصحين لكي يصرفنا عن معرفة الطريق الحقيقي الموصل للقنديل ولكي يشتت طاقاتنا على لا شيء.

بعد أن برهن قدرته على المحاججة وصناعة الكلام بلا دليل حقيقي، قال مستطرداً:

– لذلك أرى أن نتعامل مع كلامه على أنه ليس لا شيء فحسب بل خداع وتضليل.

بسبب هذا الكلام من زملائه شعر **(راتب)** بأن الغيظ يأكله من أحشائه أكلاً، وصار دمه يغلي لأنه أراد أن تكون آراء زملائه مطابقة لرأيه أو على الأقل رغب بأن تكون كذلك.

واعتبر أن كلامهم ينم عن تسطيح وتبسيط لكلام **(الشيخ)**، وبدا له أنهم يريدون أن يتملصوا من تكاليف التفكير وأعباء المحاولة. لكن بما أنه ملتحم مع فكرته وحريص على نشرها وعلى بلوغ غاياتها كظم غيظه وهدأ من انفعاله، وإن كان بمشقة، وصار أمام خياريْن: إما أن يتركهم وشأنهم وينصرف منفرداً في مسعاه، وخصوصاً بعد أن ترائى له أن معظمهم يذهبون مذهب زميليْه اللذان تكلما للتو. وإما أن يحاور ويناقش ويقنع.

انحاز إلى الخيار الثاني لأنه أدرك بالفطرة أن العمل عن قناعة تمنح العامل بها الغيرة على فكرته والمثابرة في محاولاته والصمود أمام مشقات الطريق وعوائقه.

هذا فعلاً ما أحسه وهو يقف أمامهم وشعر من فوره في نفسه أن العمل عن قناعة تفجر في الإنسان طاقاته مثل طاقته هو على كظم غيظه وربما تتثر دفائن مواهبه. لذلك كره العمل بالإحراج أو بالغصب. وخال في نفسه القدرة على دفع بعضهم للعمل معه غصباً، وبعضهم حياء لكنه انحاز برمته قلباً وقالباً إلى سياسة الإقناع بالحوار.

أخذ نفساً عميقاً واقترب منهم ثم قال بهدوء جاذب:

– قد يكون الذي تقولونه صحيحاً لكن أليس من الحكمة أن لا نتسرع في الحكم على كلامه وألا نهرب من التفكير بعمق بما قاله. فلربما يكمن في كلامه ما نتطلع إلى تحقيقه.. فلم العجلة. وأراد أن يقول لهم ولم هذا النزق والاستخفاف، إلا أنه أحجم كيلاً يستفزهم ويخسر ما يتلمسه منهم. صمت هنيهة. ارتسمت على وجهه كل علائم التركيز ثم أردف بتروٍ: أنا من ناحيتي.. قد فكرت في كلماته.. ووصلت إلى نتيجة أنه ليس من الحصافة ألا نختبر صحة كلامه ومصداقيته.

– وكيف تريد أن نختبر مصداقية كلامه؟

قاطعه أحدهم باستخفاف ولمجرد الاعتراض.

– نختبرها بالمحاولة.. نعم بالمحاولة.

رد عليه **(راتب)** بطريقة هي أقرب إلى خلطة من حزم وحنان ثم من خلال حسه المرهف التقط أن موجة من الاستخفاف قد سرت كالعدوى في أجسام أغلبهم إذ تمايلت رؤوسهم وأكتافهم استخفافاً بالفكرة كتمايل

السنبلات العنيدات استهزاءً بالنسمة لكن اليأس لم يعرف إليه طريقاً و لا دق له الإحباط باباً، و إنما واصل بثقة تثير الإعجاب:

– وأنا أقولها سلفاً.. فلربما قد نفشل في محاولتنا هذه الأولى لكن هذا لا يعني أننا سنفشل في الثانية أو الثالثة. صمت وهو لا يزال يحتفظ بتركيزه ثم استطرد: المهم أن نتحرك وأن نحاول، وإذا فعلاً فشلنا في هذه المرة فعلينا أن نتعلم منها للثانية و الثالثة حتى نحقق هدفنا.

في وسط الشباب كان يقف **(عامر)** خطيب أخته **(نجوى)**، وكان قد بدأ يحس بميل نحو فكرة **(راتب)** وإن لم تصل إلى حد الحسم. خطرت على باله خاطرة. استحسنها. فقرر أن يطرحها عليهم قبل أن ينفجر الوضع ويتدهور إلى الأسوأ.

بدأ يحرض نفسه على الشجاعة والجرأة على التكلم إذ أنه لم يعتد أن يتكلم في وسط جمع يستمعون إليه و لا سيما في وضع حرج كالذي هم فيه. بدأ يتجاسر ويتجالد وبدا كأنه يعصر نفسه في قطرات الخوف والرهبة. أخذ نفساً. تنحنح ثم قال: لدي اقتراحاً يا شباب.

سكت هنيهة يجمع فيها أنفاساً داعمة إذ أنه شعر أن نفسه كاد ينقطع لمجرد بضعة كلمات نطق بها فكيف سيصمد أمام طرح فكرة كاملة. أجال بنظره على من أمامه من الشباب وبعدها غرز نظراته على نسيبه **(راتب)** ثم أردف: أرى من الأوفق ألا نقرر الآن في الأمر، وإنما أن نعود ونجتمع هنا في عصر الغد حتى يتسنى لكل واحد فينا تقليب الفكرة في رأسه وتنضيجها وربما يتشاور مع أفراد أسرته إذا أراد.

الكل قد أعجب بالمقترح الذي رسم البسمة على محياهم وخصوصاً **(راتب)** الذي كان أكثرهم إعجاباً به حيث أن خطيب أخته الذي يحبه كثيراً كان هو صاحب المقترح ولأنه تفاءل بموافقة رفاقه عليه إذ أنها ربما تبشر باتجاه رياحهم حيث يرغب ويسعى من أجله، ومع هذا بقيت فيه غصة تلسع تفاؤله لظنه بأن رفاقه ربما أبدوا موافقتهم على المقترح من أجل تعجيل عودتهم إلى بيوتهم وللإفلات من مجمل الفكرة.

الذي دفعه إلى هذا التشاؤم هو إرثهم من خذلانهم له عند وصولهم لأفكار عملية تحتاج إلى التطبيق بعد أن بدا أن الأمر قد استتب على الاجتماع في الغد أخذ ينسحب الواحد منهم تلو الآخر من تحت السنديانة باتجاه منازلهم. حتى **(عامر)** لم يتأخر مع **(راتب)** وإنما انسحب مع المنسحبين. حينها ترسخت القناعة لدى **(راتب)** أن **(عامر)** آثر الإسراع في العودة إلى منزله خشية أن يقنعه بالالتزام له بتنفيذ المحاولة معه. لكنه لم يتجهم ولم يتبرم لفعلته هذه لأنه يعرف عمق حبه لأخته، وكونه لا يقوم بفعل شيء ذي أهمية إلا بعد أن يأخذ موافقتها.

لذلك هو متأكد أن موافقته تأتي عبر أخته **(نجوى)**. في هذه اللحظة وجد نفسه مرهقاً ذهنياً وجسدياً. فكان عليه إما أن يقفل راجعاً إلى منزله مثله مثل أصحابه وإما أن يرتاح ريثما يستعيد طاقته. اختار بدون كثير تفكير أن يجلس على الصخرة القريبة من جذع السنديانة التي بدت كأنها تنافسها على مستوى الرسوخ في الأرض عند كل منهما، فكان جلوسه عليها واستناده إلى السنديانة كمن يستلهم منهما صلابة تمسكه بفكرته

ورسوخ طريقته الجديدة. حدّث نفسه قائلاً: "إذا عليَّ أن أسبقه إلى أختي قبل مجيئه إلى بيتنا في المساء".

كانت طريقه إيابه مفروشة بالشكوك والقلق والصراع. في داخله يكاد يجزم أن موافقة أخته مضمونه في جيبه معولاً على حنانها وحبها له. لكن في نفس الوقت يدرك أن حبها لـــ **(عامر)** قد ملأ عليها كل مشاعرها وحياتها كلها. فهي إن تكلمت فعن **(عامر)**، وان صمتت لـــ **(عامر)**، وإن غابت في المطبخ فلـــ **(عامر)** تعد أكلة خاصة له على شرف قدومه كي تفاجئه بها. وإن رقدت للنوم تسمرت بعينيها على سقف غرفتها ترسم عليه باللون الوردي لوحات مستقبلها مع **(عامر)** فارس أحلامها.

فهل حقاً موافقتها مضمونة؟

ورغم ذلك استطاع أن يقنع نفسه أنها ستوافق لأنها لو فكرت قليلاً وكأنها تفكر لغيرها ستعرف أنها لن تخسر كثيراً أو لن تخسر شيئاً على الإطلاق بل لعلها، إن عاد بعد غيبه محدودة مع قنديله. الأرض كلها لن تسعها حينئذ من فرط سعادتها به وبقنديله.

دخل كعادته على أبيه وأمه، وحياهما، وما لبث أن دلف إلى غرفة أخته تاركاً وراءه والدين يرقدان تحت وطأة مفاجئة عودته المبكرة مخالفاً سيرته التي اعتاداها منه في الفترة الأخيرة.

وتولت اشراقته وبشاشته التي لاحظاها على وجهه عند دخوله مهمة إسكات صراخ مفاجأتها واستبدالها بالطمأنينة عليه. وولوجه إلى غرفه

أخته التي تتحضر كما كل مرة قبل قدوم خطيبها **(عامر)** للسهر معهم زاد من طمأنينتهم.

تقدم نحوها بهدوء. يدفعه التطلع والرجاء إلي الأمام. والقلق والخوف يشدانه إلى الوراء، فصار كمن ربط في وسط حبل يتجاذبه طرفاه. ولما كان الرجاء أقوى انجذب إلى الأمام نحو أخته فألفاها في صراع مضطرم: أي الأثواب تلبس، وهي تتندن بأغنيتها عن **(عامر)** يعرفها لكثرة شغفها بها وترديدها لها بمناسبة وغير مناسبة. ولأنه يحب كلماتها استمع إليها بافتتان:

قلولي حبيتِهْ كم مرَّة

قلتلهم حبيتْ بس مرَة

قلولي بعيه بالدنيا

قلتلهم ولا مرَّة

قلولي ابعديه عنك

وعيشي حياتك حرَّة

قلتلهم يفتح الله

العيشة بدون الغالي والله مرَّة

واللي مش عاجبه يطلع برَّة

تتحنح بصوت تسمعه كي تشعر به وتمنحه وقتاً لإقناعها. ولما لم تنتبه صار يقترب منها وهو يردد معها بصوت عال:

قلولي حبيته كم مرة

قلتلهم حبيت بس مرة

قلولي بعيه بالدنيا

ثم وهي تضحك من كل قلبها التفتت إليه بكل جسدها وهما يرددان معاً:

قلتلهم ولا مرة

وضحك هو الآخر واندفع نحوها وحضنها ثم قبّل جبينها برقة وحنان بالغين صادقين.

أجلسها إلى جانبه وهو لا يزال يمسك بيدها.

لم يعرف كيف يبدأ معها الحديث أو من أين يبدأ، وبدت على وجهه ملامح التردد والارتباك وصار يلتمس لنفسه أقصر الطرق وأنداها يدخل منها إلى قلبها لاقتناعه أنه أمام معركة قلوب وعواطف، وأن قلبها هو الذي سيرسم موقفها في لوحة رغباته وطموحاته.

تفاجأت من وضع أخيها وهو بين يديها فهي لم تعهد عليه معها هذا الارتباك وهذا الاضطراب ولم تره من قبل البتة كالقط المنكمش على ذاته من البلل.

أدركت على الفور أن ثمة أمراً كبيراً يعتمل في صدره. فأخذت تساعده بطريقتها الحانية العذبة كي يفرغ ما لديه من حمولة تثقل ظهره أو هموم تشغل فكره. وفعلاً بدأ يشرح لها ما يشغله بعد أن شعر بانسياب حنانها وتفتح زهرته للكلام. أكد لها بأهمية وضرورة أن يجد أبناء القرية القنديل الذي لا ينطفئ كيلا يبقوا متخلفين ونكتة للقرى الأخرى، واستطرد

أن إيجاد القنديل معناه إيجاد نقطه انطلاق القرية نحو التقدم والتطور بلا عودة إلى الوراء. وعندما بلغ إلى قوله إن على شباب القرية المبادرة قبل غيرهم أجفلت وأحدت من سمعها وسرت فيها ارتعاشة الملدوغ من أفعى وصار قلبها كمن تجمع فيه سهماً يخزها ألماً ينذرها بشيء لم تعرف كنهه عن **(عامر)** خطيبها. هو شعر بما اعتراها من انفعالات لكنه لم يشأ أن يتوقف وإنما قال بصوت المنكسر الراجي: أنت تعرفين أن **(عامر)** من الشباب القليلين الجديرين بالثقة والاعتماد عليهم لخوض غمار مثل هذه التجارب والمهام.

وقفت منتفضة لسماعها ما خشيت سماعه وأحست ببداية دوخة ألمَّت بها ثم أخذت تتقدم ببطء نحو حائط الغرفة المقابلة دون أن تنطق ولو بكلمة واحدة، وألقت بيدها اليمنى على صفحة الحائط متكئة وبدت وكأنها تتكئ على عاتق صديقة لها. حينها خيل إلى **(راتب)** أن الحيطان تتنادى للوقوف إلى جانب أخته وأحسها تذرف الدمع لأجلها وتهتف بها إلى حضنها لأنها هي أكثر من سمع أهازيج حبها لـــ **(عامر)**.

انتظرها كحبة الحمص على المقلاة وخالها تفكر بما ترد عليه، وكانت هي حقاً تفكر بما حل بها، فحبها لأخيها بلا نهاية لكن حبها لـــ **(عامر)** ليس له بداية وليس له نهاية.

هو يرى الأمر بسيطاً لا يستحق كل هذا العذاب وأن الأمر لا يكلفها سوى غيابه زهاء الشهر على أكثر تقدير ثم ما يلبث أن يؤوب إليها حبيبها.

أما هي كانت تعرف أن البحث عن القنديل يعني غياب **(عامر)** عن عينيها وأنها ستحس اليوم بسنة أو أكثر إذ لما كانت تنتظره من الزيارة إلى الزيارة كانت تشعر أن الزمن وقف وأن عقارب الساعة لا تتحرك.

وشوقها دائم الاشتعال إلى **(عامر)** هو الذي حدا بها إلى تأليف الأغاني له ليستأنس قلبها بلحن اسمه ولتعوض روحها بعده عنها لساعات، فماذا تفعل إذا امتد بعده أيام بَلْه أسابيع.

ولما تأخرت بالرد تقدم **(راتب)** صوبها ثم وقف قبالتها، وسألها برقة وحنان:

– ماذا تقولين يا أختي الغالية؟

استدارت نحوه بهدوء القانتات، وكاد قلبه يتقطع لما رأى دمعة معذبة تنزلق من طرف عين أخته على خدها المورد.

ثم قالت بصوت متهدج:

– لا تحسب أني سأوافق.. لا لن أوافق.

توقفت هنيهة ثم استطردت:

– لا أستطيع أن أوافق.

لم ينزل عليه جوابها كالصاعقة بل كان يتوقع هذا الرد.

وقبل أن يتكلم بشيء أردفت:

– لكن في نفس الوقت لا أستطيع أن أعارضه إن هو أراد الذهاب معك إن كان فيه نفع ومصلحة لكما وللقرية.

ثم صمتت، ولم يتكلم واكتفى أن طبع قبله حانية على رأسها.

3

قد لا يحسن المرء الاستعداد لعاصفة عاتية متوقعه تأتيه بعد هدوء طويل، فكيف به بعاصفة قد كشرت عن أنيابها غير متوقعه تأتيه بعد هدوء ناعم تقلب على جنباته فترة طويلة.

هذا ما حدث لقرية **(راتب)** في صبيحة يوم وادع من أيام القرية الهادئة إذ أن أهل القرية الذين يقطنونها من الجهة الشرقية، وكذلك المزارعين الذين يفلحون حقولهم من نفس الجهة أخذوا يسمعون أخلاطاً من الأصوات والصراخ يأتيهم من جهة الغرب. ومما زاد من قلقهم وخوفهم تعاظم هذا الضجيج والصخب واقترابه من وسط القرية.

أيقنوا أن ثمة خطب خطير يلوح في الأفق. هرعوا جميعًا دون تنسيق أو تفكير إلى مكان الضجيج يستجلون الخطب.

وهناك شاهدوا حشداً من أهل القرية رجالاً ونساءً وأطفالاً وقد غشيت وجوههم سحب من السواد الكثيف مجتمعين حول طائفة من الشباب كانوا يحدثونهم بأيديهم ووجوههم وأفواههم كالمجانين.

وكلما اقتربوا منهم شعروا أنهم يقتربون من موقد نار مشتعل إذ إنهم رأوا شرر الشر والهياج ينبعث من وجوه الشباب وكأنهم قادمون من جبهة قتال دامية لأن ملابس بعضهم قد تلطخت بالدم فضلاً عن تمزق ثياب البعض الآخر.

المنظر الرهيب قد أقلق **(أبا راتب)** وأضرم في داخله نار الخوف والاضطراب، فهم شباب من جيل ابنه **(راتب)**. وأخذ يسأل من يلقاه عن سبب تجمع الناس و هياج الشباب لكن أحداً لم يجبه وكأنهم أصيبوا بالصمم وبالبكم وكلٌّ أخذ يجر ذيول الرعب منكس الرأس إلى غير جهة وكأنهم سكارى أو مجانين.

كاد **(أبو راتب)** يفقد عقله وصوابه وأوشك الغضب أن يفتك بصبره ورباطة جأشه. وقف وأخذ يتنقل بنظره على الناس الغادين والرائحين لعله يظفر بعاقل يستفهم منه الغامض والمحير، وإذ به يسمع صوت ابنته تناديه: أبي.. أبي. وكانت تغذ الخطى نحوه وهي متعبة، وما أن التقيا حتى بادرته قائلة وهي تلهث:

الحمد لله يا أبي أن **(راتب)** و**(عامر)** غير موجودين.

سكتت تأخذ أنفاساً، وكانت ملامح الرعب قد كست وجهها ثم استطردت:

لأنه لو كان **(عامر)** هنا لكان على رأس هؤلاء الشباب.

لم يكن كلامها كافياً لإسكات غضب أبيها، بل زادته كرباً على كرب، فهو لم يعرف حتى الآن ماذا حدث وماذا ألمّ بالقرية، والأمرّ والأقسى أنها أقحمت ذكر ابنه وخطيبها قبل أن تذكر له ما الخطب.

أخذها من ذراعها بعنف غير معهود عليه معها، وقلبه يغلي من الحنق ثم قال:

- **(نجوى)** ارحمي أباك وقصي عليَّ ما شأن هؤلاء الشباب، ولماذا الناس كالمعاتيه لا يتكلمون؟

أحست من فورها بثقل القلق والاضطراب الذي يخنق أباها ويلفه من كل جانب. أسرعت إلى قص ما علمته من شأن هؤلاء الشباب وما جلبوه لقريتهم حتى توهن قبضة القلق عنه.

ما أن فرغت من كلامها حتى طفح داخله بالفزع والقلق على قريته التي لامس حبها شغاف قلبه. طلب من ابنته العودة في الحال إلى المنزل ثم أسرع من توه بنفس الحال الذي تلبس الذين استغرب حالهم قبل قليل إلى زميله الذي يعرفه برجاحة عقله وهدوئه كي يتباحث معه سبل مواجهة هذه العاصفة التي حلت بهم قبل أن تتحول إلى زوبعة لا يسلم منها أحد.

لم يكن **(أبو راتب)** الوحيد الذي فزع إلى زميله، وإنما وجد عنده آخرين والتحق بهم آخرون من كبار القرية واستمروا إلى العصر مغموسين في النقاش والهموم. فتراهم أحياناً يحتدون في النقاش وأحياناً يستبد فيهم الوجوم، وكان كل هذا يحدث دون أن يلتفتوا إلى جوعهم

وأمعائهم الخاوية، ودون أن ينتبه زميلهم إلى واجبات الضيافة المعروفة بها، وأصلاً نسي أنه هو صاحب البيت، فالخطب جد خطير وتفكيرهم في إنقاذ البلد هو ما أنهك بالهمِّ بالهم، واحتل كل جزء فيهم.

وفي خضم النقاش دخل عليهم شاب مضطرب يحث الخطى صوب أبيه صاحب البيت وكان حاله في اضطرابه مثل أمواج البحر المضطربة المتكسرة بارتطامها على صخور الشاطئ تنذر بهيجان البحر الداهم. وما أن وصل أباه الذي كان يجلس في صدر الديوان وإلى جانبه **(أبو راتب)** حتى خيم الصمت على المكان، وكان صمتًا مرعبًا أرعب الشاب المرعوب أصلاً وزاده اضطراباً على اضطراب. ولما صار الوضع كذلك رمى كالمصروع بوجه أبيه الخبر الذي يحمله ثم غادر كالمجنون إلى خارج البيت. أخبره أن وفداً مهيباً كبيراً من القرية الكبيرة قد وفد على دار **(المختار)**، ولا يعرف ماذا أخبروه أو ماذا يريدون.

ضج الديوان بأصوات غير مفهومة فبات الكل يتحدث مع الكل ولم يعد ثمة مجال للتنبؤ بما قد يحدث أو ما عسى هذه القرية أن تفعل. فإنهم الآن أمام حقيقة واقعة وهذه الحقيقة لا بد أنها عند **(المختار)**، ومنه سيعرفون مصيرهم ومصير قريتهم ولا يتوقعون خيراً، فقلما يصدر من هذه القرية المتجبرة خيراً. وخصوصاً أنها معروفة في الأقاليم كلها بغطرستها وقلة رحمتها واستغلالها للقرى الأصغر منها والأضعف حتى ولم لم تصنع معها شيئا يغضبها، فكيف بمن يفعل معها ما يغضبها ويجرح هيبتها وما قد يخرجها عن طورها.

فجأة اعتلى الوجوم وجوه الحاضرين، وصاروا ينظرون إلى صاحب البيت وإلى **(أبي راتب)** يستنطقونهم الرأي والمشورة فهم أرباب الحكمة وأصحاب الرأي ووجوه البلد.

لم يتأخر **(أبو راتب)** في إسعاف الوضع، فقد طرح عليهم الذهاب إلى دار **(المختار)** من فور انصراف وفد القرية الكبيرة من عنده لئلا يحدث الاحتكاك الذي لا يعرفون مغبته ولا نهايته.

أثنى صاحب البيت على رأي **(أبي راتب)** وأيده وبعث في الحال من يرصد وفد القرية الكبيرة.

لم يمض وقت طويل حتى تفاجأ الجميع من دخول **(المختار)** بنفسه إليهم. لقد أذعرهم هذا المجيء ولم يكادوا يصدقون أنه **(المختار)**، ولولا لباسه المعروف لاحتاروا فيه. إذ أنهم لم يعتادوا عليه الخروج من بيته إلا إلى حقوله الكبيرة وبياراته الكثيرة أو إلى بيوت زوجاته الثلاث، وكذلك بسبب وجهه الذي كان أقرب إلى حجر فحم تلطخ بوحل الأنفاق إلى حدٍّ ينفر منه باحثوه.

أفسحوا له مكاناً للجلوس بين **(أبي راتب)** وصاحب البيت.

رحبوا به بغير رغبة أو حماسة لكنهم مضطرين لذلك في هذا الظرف العصيب. إذ أنهم في سريرتهم يخشون منه انحيازه إلى القرية الكبيرة كي ينجو بجلده من أنيابهم ومخالبهم ولو كان على حساب قريته وأهلها. فكل ما يهمه حسب رأيهم هو بقاؤه في دار المختار مختاراً.

بعد أن تمكن في مجلسه وطاف بطرفه نظرة سريعة على الحاضرين. أحس أن عيونهم تريد أن تلتهمه ولا تذر منه شيئاً إذ أنهم شعروا أنه يسحقهم بتلكئه في بدء الحديث، ويريدونه أن يشرع بالكلام دونما تأخير أو تباطؤ، فالوقت ليس لصالحهم. وفي الحقيقة هو لم يتأخر في الكلام وكانت المسافة بين مجيئه وبدئه الحديث بضعة هنيهات، لكن لحظات وقوف الإنسان المتعب من وعثاء السفر أمام أسد جائع يتوثب للانقضاض عليه تدخله في سراب الوقت وتشعره أنها ساعات فوق ساعات.

أخبرهم **(المختار)** أن الوفد من القرية الكبيرة كان حازماً وصارماً ونفد الصبر يتطاير الشر من عيونهم. ثم استطرد أنهم أمهلوا القرية مدة شهر واحد حتى تستجيب القرية لواحد من مطالبهم الثلاثة وقبل أن يستمر في حديثه قاطعه **(أبو راتب)** بشيء من التوتر والتهكم الغاضب:

– مطالبهم الثلاثة.. هذا ظلم.. لا يحق لهم أن يفرضوا علينا مطالب.

ثم آزره صاحب البيت قائلاً برصانة:

– وخصوصاً أن شبابنا لم يتعمدوا قتل ابنهم وإنما كان ذلك بعد أن قام كوكبة من شباب قريتهم بالتحرش بهم وتعييرهم بالقنديل حتى أتخنوهم إهانة وهشَّموا ما لديهم من كرامة.

وجموا برهة وأوداجهم منفوخة من الغيظ. ثم لم يلبث **(المختار)** أن بدأ يفرغ ما لديه من حمولة:

– أنهم يقولون أن شبابنا نصبوا كميناً وأردوا أحد أبنائهم قتيلاً وجرحوا آخرين.

ما أن سمع (**أبو راتب**) هذا الادعاء حتى وقف منتفضاً ثم هتف بحنق:

– هذا كذب وافتراء.

ثم استدار نحو (**المختار**) قائلاً:

– وأريدك يا (**مختار**) أن تسمع أحد الشباب من الذين كانوا في العراك لكي تعرف ما حدث بالضبط.

لقد أكد الشاب على مسمع الجميع أنه هو وأصحابه كانوا ضحية إهانة ونهش

للكرامة، ولم يكن كميناً البتة بل إن أبناءهم هم الذين بدأوا بضربهم ومضايقتهم مما اضطرهم إلى الدفاع عن أنفسهم. وأن إحدى ضرباتهم الدفاعية كانت على ما يبدو قاتلة من غير قصد منهم.

كان الشاب يتحدث بتشنج وتوتر وعصبيته أشبه بالقط المنفوش شعره حينما يجابه قطاً آخر.

نظر (**أبو راتب**) مرة أخرى إلى (**المختار**) ثم قال بعصبية مشتعلة:

– سمعت يا (**مختار**)!؟ سمعت ما قاله!؟ هذا هو الصحيح.. والظاهر أنهم يبيتون لنا الشر وكانت هذه فرصتهم السانحة لتحقيق مآربهم وشرهم.

هذه الأخيرة قالها وكأنه يقذفها من فمه قذفاً. ثم نفخ بعض النفخات العصبية في الهواء ثم عاد إلى مجلسه وبقي صامتاً متجهماً كغيره.

هذا الكلام لا يزيد ولا ينقص عند (**المختار**)، وربما يعتبره لغطاً أو لغواً. وما يهمه هو أن ينقل لأهل القرية المطالب التي يحملها كي يتدبروا

أمرهم ويخلصوا حالهم وقريتهم من القادم. استغل صمتهم الواجم، نظر إلى صاحب البيت ثم قال بشيء من العتب والتوسل: يا جماعة..

سكت وأخذ يجول بنظره عليهم ثم استطرد: هذا الكلام لا يقدم ولا يؤخر بالنسبة لهم. وهم مصرون على أن القتل كان نتيجة كمين. لذلك هم منحونا مدة شهر واحد كي نستجيب لأحد مطالبهم وإلا استباحوا القرية بكل ما فيها ولها.

كانت طريقة كلامه وقسمات جسمه تفضح حقيقته، فهو من ناحيته يتحدث كأنه ناقل أخبار وليس صانع قرار وكان يتحدث من ناحية أخرى بأسلوب مترع بالطمأنينة مما قد يطول قريته التي هو رسمياً مسئول عنها. وهذا يكفي **(أبا راتب)** ليؤكد إدانته له بالتواطؤ. بقي الوجوم سيد الموقف، ولم يبادر أحد إلى كلمة واحدة تعقيباً على كلامه وإنما ظلوا منصتين له كي يعرفوا ما هذه المطالب.

لم يضع **(المختار)** لحظة واحدة وإنما واصل يشرح لهم المطالب. أخبرهم بوجه كأنه مكسو بملامح امتعاض أنهم يطلبون عشرة شباب من القرية لقتلهم مقابل الاعتداء الذي أودى بحياة شاب من قريتهم.

لم يكد ينتهي حتى تعالت الأصوات الغاضبة دفعة واحدة كاشتعال موقد النار هبة واحدة لشعورهم أن كرامتهم على المحك وأنها هي المقصودة.

ولما لم يستطع **(المختار)** المواصلة سكت ريثما تهدأ النفوس وتتخافت الأصوات، ولم يتعب نفسه في فهم ما يقولون إذ كانت أصواتهم متداخلة كتداخل ألسنة اللهب اللاسعة.

وبعد أن أخذت الأصوات تتخافت طلب منهم أن يهدأوا حتى يسمعوا منه بقية المطالب. وفعلا هدأت الأصوات لا سيما بعد تدخل صاحب البيت الذي طلب منهم أن يفسحوا المجال له كي يخبرهم بباقي المطالب.

وحينما رأى **(المختار)** أنه بمقدوره مواصلة الحديث أخذ نفساً وكان عميقاً ثم أعلمهم أنه إذا لم تستطع القرية أو لا تريد الإجابة على هذا المطلب فعليها أن تسلم للقرية الكبيرة قنديلاً لا ينطفئ.

كان هذا طلباً خبيثاً ماكراً بنظر **(أبي راتب)** إذ أن القرية كلها لا تملك قنديلاً واحداً لا ينطفئ وأصلاً هذا هو البلاء الذي أحاط بهم وسبب تململ الشباب عندهم.

استبدت بـــ **(أبي راتب)** القناعة أنهم حقاً لهم مآرب خفية في قريتهم لأنها كلها شروط تعجيزية تنم عن مدى غطرستهم وعنجهيتهم. قال في سريرته: "الحمد لله أن ابني غادر للقرى الكبيرة للبحث عن عمل".

تناسى أن ابنه لم يلق منه التشجيع أو الترشيد ولولا إفراط **(راتب)** بالتوسل إليه لما سمح له بالمغادرة. فربما هول الموقف وفداحة الخطب هو الذي أنساه، ومع هذا ما إن سمع المطلب الثالث حتى جاءه اليقين بما ذهب إليه.

إذ أنهم ملزمين بتنفيذه إذا لم ينصاعا لأحد المطلبين السابقين. وكان هذا المطلب أنهم إذا لم يسلموهم عشرة شباب أو قنديلاً لا ينطفئ في غضون شهر فإنهم سوف يستولون بقوة السلاح وبموافقة قرى الإقليم

كلها، على أراضي القرية الزراعية التي كانت غاية في الخصوبة والإنتاج وتشكل لهم مصدر رزقهم الوحيد.

ما أن سرت تفاصيل المطالب إلى الشباب الذين كان كثير منهم محتشدين حول البيت حتى تعالت أصواتهم برفض الخضوع لهذه الشروط المذلة وبإصرارهم على عدم تسليمهم الشباب أو التنازل عن الأرض. وأعلنوا هاتفين كي يسمعهم الكبار في الداخل: "الموت دون الأرض".. "الموت دون تسليم الشباب".

لم يبق أمامهم سوى القنديل وهو أسهل مطلب على نفوسهم وأقلها ثمناً، لكنه كان أصعب المطالب تنفيذاً بسبب عدم حيازتهم له، جراء قناعاتهم القديمة الراسخة بعبثية البحث عنه. كلهم شعروا في قرارة أنفسهم أن الكسل والتراخي عن الجد والاجتهاد في طلب القنديل الذي لا ينطفئ عاقبته الذل والاستضعاف، وعرفوا أن ثمن المبادرة والسعي والمثابرة مهما علا وارتفع أرحم من ثمن القعود والراحة وطلب السلامة ألف مرة.

كان رأي معظم الشباب ألا تستجيب القرية لهذه المطالب ولو أدى ذلك إلى اندلاع حرب شاملة، هكذا بدون كثير تفكير أو عناء تأمل. لكنهم لو أجروا حساباً بسيطاً لعرفوا أن القرية الكبيرة لا تتفوق عليهم بالعدة الحديثة وبكثرة العدد فقط وإنما ببراعتهم في التخطيط والتدبير والدراسة والتحليل. وهذا أصلاً ما أوصلهم إلى قوتهم والى قناديلهم التي لا تنطفئ. لكن غالباً ما تُطفئ الحماسة نور البصيرة.

بينما الكبار كانوا أكثر روية منهم وأوسع خبرة في ميزان القوى بين القريتين. فلم يسارعوا في اتخاذ قرارهم تحديد توجههم وإنما أخذوا يتناقشون بمرارة وألم ممض الخيارات المتاحة أمامهم، وكانت كلها خيارات صعبة تتنبذب بين رمضاء ونار إذ ليس لديهم حتى ذرة تفكير لتسليم عشرة شباب من أبنائهم و لا حتى شاب واحد للقرية الكبيرة، لأن هذا يعني كما قالوا تكريس دونيتهم وتخلفهم، والطريق بعد ذلك ستكون قصيرة إلى امتهانهم الأزلي واستبعادهم الأبدي.

وحينما وصلوا إلى طريق مسدود في هذا الخيار لأنهم أجمعوا على عدم الاستجابة له قفزوا عن مطلب القنديل الذي لا ينطفئ مباشرة إلى مطلب تسليم الأراضي وكأنهم لا يريدون أن ينكأوا لأنفسهم جراحاً قديمة هم أنفسهم قد اجترحوها في أرواحهم وأعماقهم. رغم أن الأرض غالية على قلب كل واحد فيهم الصغير قبل الكبير فمنها يعتاشون وفيها يمرحون وعليها يبنون بيوتهم وقصور أحلامهم، وبدونها فمصيرهم الاستعباد لا محالة.

"الأرض.. الأرض.. الأرض ما أغلاك على قلبي وما أعزك على روحي" بحرارة هذه الكلمات الجليلة تلت روح **(أبي راتب)** وبكت ملتاعة دون أن يسمع أنينها أحد أو ينتبه عليه أحد.

لقد تناقشوا حول مطلب تسليم الشباب بكثير من الجدية والصرامة والمرارة. لكن نقاشهم حول الأرض كان إلى مناحة الثكلى أقرب أو إلى

آهات العليل على فراش الموت أو إلى صوت جيشان دموع الأم عند فراق ابنها الوحيد أصدق وأصدق.

كاد **(أبو راتب)** أن يصرخ قائلاً: "لا.. لن نتنازل ولا عن شبر واحد من أرضنا العزيزة والغالية مصدر رزقنا وكل مستقبلنا". وتسربت بدلاً عنها على خده المورد من لهم والكرب دمعة حارة، وبسرعة الوميض مسحها كيلا يكشفه أحد، كونها عيب في حق الرجال في عرف هذه القرية العريقة.

اختار أن يبقى لائذاً بالصمت يستمع وتبكي روحه، وخصوصاً عندما سمعهم يتداولون فكرة أن يطرحوا على القرية الكبيرة نصف أراضي القرية تؤخذ معظمها من أراضي أهل الشباب الذين اشتركوا في العراك وأدوا إلى هذه النكبة. لكن سرعان ما عدلوا عنها لأنها ستفجر صراعاً داخلياً سيكون ثمنه أفدح وأخطر على وجود القرية وبقائها. ولأن القرية الكبيرة لن ترضى إلا بكل أراضي القرية كما أكد لهم ذلك **(المختار)** وحاول أن يدفعهم بهذا الاتجاه مما أوقد نار الغيظ والغضب في صدر **(أبي راتب)** عليه وأشعل نيران الشكوك من حوله.

و حالما أيقن **(أبو راتب)** أن الجميع كانوا قاطعين وحاسمين في عدم تسليمهم ولا حتى شبراً واحداً من أراضيهم انفرجت أسارير روحه قليلاً وانزاح عن قلبه بعض الثقل والضنك، وقال في نفسه بحنق: "سيأتي يومك يا مختار".

في المساء عاد **(أبو راتب)** مكدود الجسد، مكروب الروح مقوس الظهر وشاحب الوجه يجرجر قدميه جرجرة من يحمل فوق ظهره حملاً يفوق طاقته ويتجاوز حاجته ورغبته متجهاً صوب غرفته بطريقة غير مألوفة عليه إذ كان قبل وصوله بوابة الدار في أيامه العادية ينثر ظل قدومه حول الدار كما تنثر السحابة ظلها على الأرض فكأن الذي مر سحابة شفافة مسلوبة الظل والرذاذ.

عرفت زوجته من فور دخوله من فداحة منظره ومن خبرة العشرة أن خلقه ضيق "وعقله خزق" لا يحب أن يكلمه أحد أو أن يكلم أحد.

كان وهو عائد أدراجه إلى بيته قد شعر لأول مرة منذ الصباح الباكر بلسعة الجوع تسري في أحشائه، وتذكر أنه منذ نزوله إلى حقله لم يدخل جوفه شيء سوى بضعة فناجين من القهوة السادة كان قد شربها في غمرة النقاشات في بيت زميله. لذا كان طلبه للطعام من زوجته بالإشارة أول شيء بدر منه حتى دون أن يلتفت إلى ابنته المحببة والمدللة التي رافقته من عتبة البيت إلى داخل الغرفة الكبيرة وسط البيت وهي تفور شفقة عليه من النازلة التي ألمت به بما أصاب القرية وأهلها، وكادت أن تكسر أصابعها الغضة من قوة الفرك اللاشعوري من شدة الخوف والقلق عليه وعلى القرية وخاصة على مالك قلبها: خطيبها الحبيب، وعلى رفيق عمرها أخيها الحنون رغم علمها أنهما لن يعودا في الأيام القليلة القادمة، حيث عرفت هي وأمها عن مطالب وفد القرية الكبيرة من نساء القرية فالبلد كلها متوترة ومترقبة تنتشر فيها الأخبار مثل انتشار الهواء الذي لا

يترك مكاناً إلا زاره. لكنهما لا تعرفان ما نتج عنه نقاش كبار أهل القرية الذي استمر طوال اليوم حتى دخول المساء وهما الآن تتصهران في نيران عذاب الانتظار ريثما ينتهي من تناول عشائه، أما هو فكان عشاؤه وغداؤه وفطوره. فلربما بعده يهدأ قليلاً وتستريح أعصابه فيتمكن من إخبارهما بما توصلوا إليه.

ما أن فرغ من طعامه حتى ناولته فنجان قهوته كانت قد هيأته له كما سارت عليه عادته. إلا أنه في هذه المرة كسر نظامه ولم يشربه، فتصدع جدار الرهبة عن شق أتاح لها النفاذ برقة إلى كنفه تستفسر عن السبب. أجابها أنه ما زال يتجشأ من قهوة زميله التي احتساها طوال نهاره. ثم اتكأ بمرفقه على الوسادة وأسند ظهره على الحائط تحت صورة كبيرة له ولأفراد عائلته قد زُرعت فيه منذ زمن كانوا قد التقطوها تحت شجرة زيتون عتيقة كجذورهم في هذه الأرض. ثم مد رجليه باسترخاء أمامه وكأنه يدحرج عن نفسه أثقال اليوم وهمومه. ربما الحل الذي توصلوا إليه هو الذي حدا به أن يمدها بارتياح أو ربما تناوله الطعام بعد جوع اليوم المضني وعناء النقاش المنهك هو الذي حقنه بنسمة ارتياح مسترخية وخصوصاً أن زوجته التي يجلها ويقدرها تجلس عن يمينه وقرة عينه **(نجوى)** تجلس على يساره. أو ربما الاثنين معاً إذ أنه يحس فعلاً بعد استرسال قدميه أن موجة من الراحة تسري بتؤدة في عروقه وأوصاله. أو ربما اتساع الغرفة الشرحة واحتوائها على أوانٍ عتيقة تستنهض فيه شعوره بالعراقة والجذور ككانون النار النحاسي الذي فيه دلات القهوة

المنتصبة بكبرياء شامخ كشموخ تلال القرية الوفيرة. أو المحراث الخشبي الذي لا يختلف لونه كثيراً عن لون الدلات الموضوع في زاوية الغرفة وفوقه مباشرة على الحائط سيف قديم معلق قد ورثه عن أبيه الذي اشتهر ببراعته في المبارزة قد تكون هي أهم رواقد راحته وارتياحه.

ثم نظر إلى زوجته هنيهة، تملاها ثم حوّله إلى ابنته وأطال فيها النظر، ومر بكف يده اليسرى بتحبب على يدها التي كانت قريبة من يده على الوسادة وكأنه يعتذر لها عن قسوته معها اليوم. وعرف من نظراتهما شدة تحرقهما لأن تعرفا ما الذي توصلوا إليه، وكيف سيخرجون من هذه الأزمة بسلام دون أن يخسروا الأرض أو يفقدوا الشباب العشرة المطلوبة رؤوسهم إلى القرية المتعجرفة و ذات المطامع الخبيثة حسب قناعتهما.

بعد أن أحست بلمسة الحنان والحب من يد أبيها رغم ثقلها وخشونتها أشرق وجهها ببسمة هادئة ووجله تحكى بكل ما يختلج في صدرها من مخاوف وقلق وشوق من طعم غريب لم تجربه من ذي قبل على حبيبها.

ولما آنست فيه انصراف التوتر عن أعصابه، وضمور الشحوب عن وجهه تجاسرت زوجته على الحديث سائلة بوجل: ماذا حدث معكم؟ وماذا ستفعلون مع هذه المصيبة التي حلت بالقرية؟

شعر **(أبو راتب)** من نبرتها مدى التوتر والقلق المستولي عليها ولم يشأ أن يبقى هذا التوتر مستبداً بها ربت بيده على كتفها ثم قال وعلى شفتيه ابتسامة تودد هادئة: إن شاء الله خير.. لا تهتما.

سكت لحظة، وعرف أن هذا الجواب لم يشف لها غليلاً ثم أردف بشيء من الزهو الممسوح بالهم:

– لقد قبلوا رأيي وتبناه الجميع.

فرحت **(نجوى)** بأبيها بقبول رجال القرية لرأيه، الذي تجهله حتى الآن، وصارت تدابع أصابع يده بأصابعها المخملية وأحياناً تمر بأطراف أناملها على راحته الأشبه بقطعة خشبية صفراء قديمة لشد ما تركت عليه أدوات الحراثة من بصمات عنيدة. وبدت وهي تعبث براحته كأنها تفتش عن جواب أشفى وأوفى أو كأنها تستنطقه بأناملها ما يخشى اللسان فعله.

وأبقت نظراتها مزروعة على وجهه تترقب كلامه من غير أن تعبأ بما قد يحدث مع أناملها جراء ارتطامها بالأخاديد المحفورة بخشبته الصفراء التي لا تشعر كثيراً بطراوة الأنامل الناعمة.

ولما تلكأ بالاستطراد سارعت زوجته إلى السؤال عما يشغل بالها: الأرض.. ماذا حدث بها؟

ثم رمته بنظرة متلهفة قلقة.

لم تترك **(نجوى)** مجالاً لأبيها كي يرد على أمها فسارعت هي الأخرى بالسؤال عن أكثر ما يشغل بالها: والشباب هل ستسلمونهم؟

لأنها خشيت خطأ إذا قرروا تسليم عشرة شباب أن يكون أحد أحبتها واحداً منهم ممن سيقع عليهم الاختيار.

ارتسمت على وجهه بسمة حزينة من سؤاليهما. أخذ الوسادة ووضعها من جهة زوجته وضم ابنته تحت ذراعه ثم قال: لا الأرض ولا الشباب.

صمت لحظة ثم تابع:

– يا بنتي يا **(نجوى)** هل تعرفين شيئاً يداس وتخطو الأقدام عليه ولكنه يضحك ويعطي بلا حساب.

لم ينتظر منها جواباً وإنما عاجلها بأنشودة الأرض الحزينة:

– الأرض يا **(نجوى)**:

اللي بتضحك لأصحابها
اللي بتفرح لما بيفلحوا ترابها
واللي بتبكي إذا فكروا بفراقها
الأرض يا **(نجوى)** اللي أشبعتنا بخيرها
اللي أطعمتنا بالصيف تينها ورمانها
واللي بالشتا بتسعدنا بزيتها وبرتقالها
واللي بترونا دايماً من عيونها ونبعاتها
فكيف يا **(نجوى)** إذا كنا إحنا أصحابها
كنا حبايبها وكنا احنا اولادها
فكيف أخونها وكيف أبيعها
أو كيف أتخلى عن ذرة من ذراتها
كيف.. كيف.. كيف..

ثم أطرق بعيون رقراقة يستعيد ذاته وروحه التي انسابت من مشاعر الإنسان الفلاح، وخيال الفيلسوف السواح. بعد أن فضفض بما اختزنه في سويداء قلبه وفي كل ذرة من ذرات عمره.

ثم رفع رأسه بخشوع المخبتين المؤمنين بمعية الله لعباده الصالحين في الشدائد والملمات ونظر إلى زوجته المطرقة هي الأخرى. وجدها تغالب دمعاتها وتكبح بكل قوتها أنّات أهاتها. مرر بيده على رأسها بحنان الزوج المحب كي يهدىء من نيران ولعها الذي لا يبارى بالأرض إلا أنها أفاضت من غور أعماقها قصيدة الأرض على من يحب الأرض، فأنشدت بصوت متهدج:

ما أغلاك يا أرض وما أكثر غلاتك
ما أطيب مياهك وما أعذب نسماتك
وما أكثر حسادك يا أرض وما أكثر طلابك
ملعون من باعك.. ملعون من خانك
ملعون من قال الأرض أرضي
وما حمى ترابك
وحبك في القلب مزروع يا أرض
وصونك من الرب علينا واجب وفرض
فكيف نفرط بحجر من حجارك
وكيف ننسى معروفك.. وننسى أفضالك
كيف.. كيف.. كيف

ثم أخذت تبكي وتنتحب بعد أن أطرقت كأنها تلقت خبر فاجعة أشجاها. فهي معذورة إذ أنها أول مرة تشعر بها بخطر حقيقي يتهدد أرضهم، بؤبؤ عينها، بالمصادرة غصباً.

وجد **(أبو راتب)** نفسه محاصراً بين دمعاتهما دون إرادته. أخذ يسكّن أوجاعهما ويكفكف بحلو الكلام الموجوع عبراتهما. ثم أمسك بتلابيب نفسه وغادرهما إلى غرفة نومه.

تعليق

لقد سبق وأشرت أن هذه القصة، قصة القنديل الذي لا ينطفئ، مستولدة من وحي أحد المعاني الغزيرة التي تحفل بها القصة الحقيقية التي سمعتها من زميلي الذي قاسمني عتمة السجن عن الشاب الشهيد الذي استشهد في انتفاضة الأقصى المبارك.

والمعنى المذكور الذي سلب لبي وأسر انتباهي هو: الجد والاجتهاد والصبر والمثابرة المختزل في شعار "**شيخ الحكمة**" (من سار وصل ومن جد ظفر) الذي حققه الشهيد في مرحلة حياته الأخيرة وظفر بهدفه المنشود بعد سعي وجد ومثابرة.

لكنني بعد هذا الشوط الطويل من السرد والكتابة، والذي حاولت فيه أن استقوي بالخيال واستنصر بالعبارات والكلمات التي خلتها معبرة وقادرة، وجدت نفسي قزماً يناكف عملاقاً أو خيّالا مسلولاً يتطاول على الحقيقة بسيف من خشب.

توقفت.. تأملت.. ترددت.. خجلت ثم فكرت فوصلت إلى أن الوعاء الصغير لا يصح له أن يسع الوعاء الكبير إلا إذا وهب الكبير نتفاً من مضمونه وسكبها في الصغير عن طيب خاطر. وهذا ما أقنعني بالمواصلة وشجعني على استمرار حمل السيف.. حتى لو كان هذا السيف.. سيف خشب.

(**راتب**) في قصتنا هو الشخصية التي نذرت نفسها لتحقيق الهدف، وأخذت على عاتقها مبدأ الجد والاجتهاد والمثابرة.

فهل سيظفر بهدفه وينال شرف نجاح المحاولة كما وعظ أصحابه؟

هذا ما سنكتشفه في الصفحات القادمة إن شاء الله.

4

لما أطل الغد بصباحه البهي أفاق **(راتب)** من نومه، على زقزقة العصافير، طيب النفس نشطاً يستعد بحماسة جياشة حلول وقت العصر الذي تواعد هو ورفاقه أن يلتقوا فيه تحت السنديانة كيما يبرموا أمرهم بخصوص خوض غمار المحاولة الهادفة إلى العثور على القنديل على هدي النصائح والإيماءات التي قدمها لهم بالأمس ذلك **(الشيخ)** الهرم منتصب القامة الذي مرّ عليهم ممتطياً حماره.

وهذه المرة لم تختلف عن مثيلاتها في الماضي إذ لم يأت إلى اللقاء المزمع سوى **(عامر)** خطيب أخته و**(باجس)**. لكن الذي اختلف فيه هذه المرة كونه لم يتبرم ولم يتجهم لتخلفهم عن المجيء، فهو قد شبع من خذلانهم إلى درجة صار يتعاطى مع المفآجات السيئة بصبر ورباطة جأش وكان هو من يتعب بيمينه ويعرق جبينه ويكد بتفكيره ويصلب عوده ويستوي على سوقه بشموخ المحارب المجرب.

حتى مقترح **(باجس)** بتأجيل اللقاء إلى المساء ريثما يتمكن من العودة إلى القرية واستقدامهم للاجتماع على نار النقاش قد تم رفضه في الحال من قبل الاثنين. ثم عقدوا العزم على الانطلاق في عملية البحث عن

القنديل من فجر يوم غد كل يقصد جهة مغايرة حتى تزداد فرص العثور عليه.

اختار (**راتب**) أن تكون جهة الشرق من نصيبه، ولما بلغ طرف القرية اعتلى صهوة ربوة تشرف على جزء كبير من قريته وجلس على صخرة متمكنة من الأرض، وصارت نسمات الفجر الرخية تتسابق بخيوطها الحريرية المنعشة على صفحة وجهه لغض، وتملكه للحظة إحساس غريب لم يدر كيف انتابه أو من أين جاءه إذ انبجست في داخله دفعة واحدة مشاعر حنين للقرية طاغية لكنه سرعان ما كبحها وصرف انتباهه عنها لأنه فكر أن مجاراتها في مثل هذه الحالة قد تكون عاقبتها وخيمة وضد مصلحة هدفه. وفي الحقيقة أن تسلحه بإيمان يقين وبإرادة لا تلين ورؤية واضحة محددة الأهداف هي التي اقتلعت هذه المشاعر المثبطة من فور بزوغها.

ثم أخذ يفكر بالهدف الذي خرج لأجله، فكان هذا الهدف وحرقته على تحقيقه أحد أهم البواعث على الإصرار الذي يحتل فيه كل جارحة من جوارحه وكل ذرة من ذراته.

وبعد أن غرق في التفكير وصل إلى خطة عمل يسير على هديها. فقرر ألا يدخل قرية ولا مدينة إلا للنوم لأنه يبحث عن كوخ والكوخ لا يكون إلا بأطراف القرية أو المدينة أو بالخلاء.

وقرر ألا يسير إلا بالنهار لأنه لا يمكن له أن يشاهد الكوخ إلا على ضوء الشمس. وأن يبقى خفيف المتاع ويظل يسير على الأقدام.

وما إن حان وقت العصر كان قد مر على ثلاث قرى متتالية، وكانت القرية الثالثة أكبرهن حجماً مما اضطره إلى الطواف بها من جميع أطرافها كيلا يضيع فرصة العثور على الكوخ. ولما هم بمواصلة السير خامره الخوف ألا يصادف في طريقه قرية كبيرة قبل الغروب سوى التي هو الآن على أطرافها، فالقرى الصغيرة مثل قريته تخلو من خان يبيت فيه المسافرون في عبورهم.

لذا عزم أن يدخل القرية ويمكث في خانها إلى فجر الغد ثم يتابع سيره.

وعندما جلس على سريره في الخان صار يراجع كل ما مر معه ذلك اليوم، ودقق بكل شيء قابله ولم يفته أن يعمل مقارنة بين قريته وهذه القرية فلم يجدها تختلف كثيراً عنها سوى بكثرة المباني وعلوها، ووفرة الدكاكين، وحركة الرائحين في شوارع القرية. وفي المساء تعمد ألا ينزل إلى البهو كما هي عليه عادة النزلاء كي يختصروا الليل بتناولهم أطراف الحديث وشرب القهوة وشرب النرجيلة. وخصوصاً بعد ما تناهت إلى آذانه قهقهات بعض المتسامرين وكأنها تصدح بها حناجر بعض البله أو بعض السكارى وآثر البقاء مع نفسه ليبقى محافظاً على اجتماع قلبه على الهدف وليوطن نفسه على متاعب البحث، ودأب السعي.

ثم مضى عليه أسبوعان من البحث المتواصل دون أن يعثر على شيء أو حتى على أثر شيء يهديه إليه، وكانت الأيام فيهما تكاد تكون متطابقة

إلى حد بعيد إذ لم يطرأ معه شيء ذي بال يستحق الوقوف عنده أو تسليط الضوء عليه.

لكن الشيء الحري بالانتباه والذي أحس به لأول مرة بهذه القوة هو الوسواس والخواطر التي صار يختلج بها صدره وتتعارك مع إرادته وعزيمته إذ أن الإخفاق في العثور على القنديل بعد أسبوعين من السعي والبحث المجد كادت تبذر فيه بذور الإحباط واليأس وخصوصاً أن تراكم عناء الأيام الماضية قد غذَّت لديه وساوس الخيبة والنكوص وصارت تغريه بالاكتفاء بما لاقاه والعودة إلى بلده مكلل بشرف المحاولة وإن لم تنجح، فهو على الأقل، كما زينت له نفسه، بادر وحاول، وليس كغيره من الذين قعدوا ورضوا بالواقع وسلموا بوضعهم الذي جعلهم عرضة للسخرية ولتسفيه الآخرين.

لكنه سرعان ما تذكر ما تعرض له من تعيير وإهانة من قبل أبناء القرية التي حظيت بالقنديل الذي لا ينطفئ، والذي كان بالنسبة له الشرارة التي أشعلت فيه الغضب والثورة وهمة البحث وإرادة العثور. وتذكر أيضاً كيف كافح من أجل إقناع شباب القرية بوجوب إزالة سبب السخرية والإهانة ولزوم التشمير عن ساعد الجد والاجتهاد في السعي والبحث. ثم حدث نفسه بنبرة تحدٍّ: "لا يكفي يا نفس المبادرة والمحاولة بل لا بد من المثابرة والالتحام بالهدف".

ثم ما لبث أن اشتعل حماسة وعزماً قد اقتلعا بذور الإحباط واليأس قبل أن تنبُت وتتجذر.

عندها أحس بوجوب إجراء كل بضعة أيام محاسبة وحواراً داخلياً مع نفسه في مسيرته، كي يتسنى له اجتلاء هدفه وخياره مما قد يعتريهما من غبار التعب ووحشة الطريق الذي قد يسبب تزاحم الوساوس والهجوم عليه.

وفي فجر اليوم الأول من الأسبوع الثالث غيَّر مساره نحو قرى الجنوب على شرط الانعطاف بعد الطواف على قراها إلى جهة الغرب وبلداتها والعودة من هناك إلى قريته. وكان قد توصل إلى هذا التعديل بعد تفكير طويل في الليلة الماضية مستكفياً بما قد قطعه في جهة الشرق.

وكانت أكبر مدينة في الجنوب هي أول ما التقى به، ولقد لفتت انتباهه العمارات العالية التي بُنيت على نسق واحد مما ينم عن حب النظام لدى هؤلاء القوم، وحركة السيارات غير العادية، ونظام الشوارع الفسيحة التي تشرح صدر السائق وتغسل عن قلبه أسباب التوتر والقلق فضلاً عن لباس الناس فيها الذي لم يتصور يوماً بشراً يلبسونه ويألفونه لكنه لم يوله اهتماماً زائداً وإنما صار يساير فكره بما قد تشتمل عليه المدينة في داخلها وفي أحشائها، فظن أنها لربما تضم العجائب والغرائب.

أخذت تستهويه فكرة دخولها والتجول في شوارعها والاستمتاع بمزاياها غير المتوفرة في قريته وفي القرى الأخرى التي مرّ من أطرافها أو تلك التي بات فيها.

لكنه ما لبث أن تذكر خطته في عدم دخول المدن لمجرد الدخول. وفعلاً همّ بالطواف من حولها واجتيازها. لكن فتنة المدينة وما تزخر به

كانت تضطرم في صدره وتغلي مثل غليان البركان تحت السطح أو مثل الجمر المتقد تحت الرماد ما أن تهب نسمة ريح عابرة حتى تتكشف وتنفجر اشتعالاً.

لم يصمد أمام سحرها وجنونها. دخلها مغتبطاً لأنه أقنع نفسه بالمرور فيها سريعاً ويكتفي بالنظر إلى عجائبها دون أن يُستدرج إلى التلبث فيها سوى ما يخدم أهدافه وغاياته كأنْ يلتقي مثلاً مع أحد أو مع شيء يوحي له بشيء ذي صلة بالقنديل.

ومن أولى خطواته في داخل المدينة شعر أنها بمبانيها وشوارعها وحوانيتها تفتح له صدرها، وتضحك بتحبب لوجوده بأحشائها من كل قلبها.

استأنس بهذا الشعور، وثابرت عيناه في التنقل من محل إلى آخر، ومن حانوت إلى مطعم ثم إلى الناس تأملاً لعله يجد في وجوه أبناء المدن ما يجعله يحن إلى حياة القرية أو لربما إغرائه وإغوائه. المهم ظل يتطلع إلى كل شيء تقريباً تبصره عيناه وتصله قدماه.

وظل على هذا الحال يتحرك تحت فعل سحر المدينة حتى جَبَهه ما خشيه وحاول دائماً تلافيه.

5

حتى لحظة دخول **(راتب)** إلى المدينة كان **(باجس)** قد قطع مسافة تضاهي تلك التي قطعها **(راتب)**. إلا أن القرى التي مر عليها أقل عدداً كون طريقته تختلف عن طريقة **(راتب)** في السير والبحث.

كان **(باجس)** قد اتجه نحو قرى الشمال، ولم يرسم لنفسه نمطاً معيناً من البحث والمسير إذ أنه في بعض القرى كان يجتازها من أطرافها وفي بعضها الآخر كان يدخلها من غير حاجة توجب دخولها ويتلاقى مع أهلها ولم يكن يتردد في سؤالهم عن الكوخ وعن مكانه، وعندما كانوا يسألونه عن أي كوخ يتحدث لم يكن يعرف كيف يرد عليهم أو بماذا يجيبهم إذ لو أفصح لهم عن الحقيقة فلسوف يتخذونه هزواً وموضوع نكتة.

لذا كان يغمغم غمغمات ثم يلوي شدقه وينصرف مطرقاً مسرعاً وقد علت وجهه الحمرة، وكردة فعل عاطفية كان لا يمر من داخل القرى التي تليها وإنما كان يمر من أطرافها. إلا أنه بعد أن يجتاز بضعة قرى من حولها يتناسى ما حدث معه في تلك القرية، فيمر من جديد من داخل قرية أخرى دون أن يعبأ أن كان دخوله بالليل أو بالنهار، فهو لم يحدد لنفسه

أوقات سير وبحث وإنما الظروف والمزاج هي التي كانت تملي عليه وقت سيره ومسار خطوه. ربما عمره الصغير هو الذي صاغ وأساغ له هذا التصرف والأسلوب إذ كان أصغرهم سناً وما زال دون العشرين. وفي مثل ظروفه الآن لا تسعفه وسامته وخفة روحه التي تزين بها إذ كان وسطاً بين الطول والقصر وذو قامة منتصبة ورشيقة يكللها وجه قمحي نقي مرصع بعينين ساحرتين مع حدقتيْن سوداويتيْن وبياض شديد النصاعة يحيط بهما من كل جانب كأنه يحرسهما بغيرة وحمية من شر الحساد والنفاثات في العقد.

وعندما خرج مرة أخرى آخر مرة من داخل قرية كبيرة كان مطرقاً ومغتاظاً لتخلفه حتى الآن عن العثور على القنديل ولما لاقاه من نظرات التهكم جراء عجزه عن إعطاء من سأله التفاصيل عن الكوخ. وعقد عزمه ألا يستمر في البحث وأن يعود إلى قريته مستأنساً بما قد قابله من تعب وإرهاق واستخفاف مستشعراً أداءه واجبه حيال نفسه وحيال قريته على الوجه الذي يشفع له عند ضميره هو وعند غيره. ثم سلى نفسه بإمكانية عثور **(راتب)** أو **(عامر)** على القنديل مما قد يشق الطريق لفرص العثور عليه لمن أراد.

وهذا لم يكن يعنى البتة أنه لم تلتهب أغواره حرقة على تحقيق هدفه في إيجاد قنديله وإلا لما تحمل عناء البحث ووعثاء المسير حتى الآن. لكن هذه الحرقة لم تكن متقدة بما فيه الكفاية تؤجج فيه عزيمته على المواصلة عند كل مطب وعند كل وعكة نفسية.

إذ في مثل هذه الحالات يحتاج المجدُّ والباحث إلى أن يعتصم بعزيمته وهمته شامختيْن عنيدتيْن عصيَّتَيْن كي يضخان فيه أثناء السعي والسير وقود الدأب والمثابرة حتى الظفر والانتصار، وهذا لا يتأتى إلا بتذكر الدوافع والبواعث التي حركته في البدء وبقوة أمله في تحقيق أهدافه في النهاية وما قد يجنيه هو وقومه في نجاحه وانتصاره.

فالعزيمة عند المثابر والمجد مثلها مثل موقد النار فكلما تعهده بالحطب والنفخ والنبش بين الفينة والفينة ازداد حرارة واضطراماً وإلا خبت وخمدت ناره.

في طريق عودته قصد مساراً آخر غير الذي رسمته قدماه عند خروجه من قريته، وذلك طمعاً في أن يعثر عليه في مسار إيابه بدون عناء البحث الدقيق، وأخذ على نفسه ألا يكرر نفس الخطأ الذي كان يرتكبه في طوافه الأول. لذا لم تعد فكرة دخول القرى تغويه أو تستهويه إذا ما انفكت الندوب التي خلفتها الإهانات تنهك روحه ونفسه. وإذا كان ثمة بد من الدخول فللنوم فقط دون أن يولي لساعة الصحو واستئناف السير أية أهمية أو انتباه. إذ بات هدفه الآن أن يعود سالماً إلى قريته وأهله.

وبعد يومين من مسيرة عودته عنَّ له أن يحرف مساره إلى جهة الغرب يؤوب منها إلى قريته دونما سبب يستدعي ذلك وإنما ما أن ورد هذا الخاطر في باله حتى أطاعه من غير غربلة أو تبصر للعواقب ما دامت هذه الانعطافة توصله في النهاية إلى بيته وعائلته.

هذه المرة كان قطعه للمسافات أسرع. إذ سرعان ما توغل في جهة الغرب صوب بلده ماراً على عدد من القرى يعادل أو حتى يفوق ما قطعه من جهة الشمال في غضون أسبوعين. فهو لم يجرب أن يدخل حتى ولا قرية واحدة وإنما حافظ على اجتيازها من الأطراف واكتفى برمقها من بعيد بنظراته. وظل هذا حاله إلى أن لمح من بعيد شيئا يشبه أطيافا من الناس قريبين من أسفل سفح جبل تلوح على يمينهم طرف قرية. لكنه لم يطمئن إلى ما طاوله بصره. أخذ يقترب بتردد وتؤده وهو يعرِّش على عينيه بكف يمينه كي يحميهما من أشعة الشمس الحارقة ويتسنى له الاستشراف.

عندما أيقن أنهم أناس خلهم في البداية مجموعة من الرعاة يوردون مواشيهم إلى عين ماء، لكنه ما لبث أن عدل عن ظنه لأنه لم يشهد ثمة ماشية، وإن لاح له من بعيد ما يعزز لديه الظن بوجود عين ماء بقربهم. ولما زلف أكثر وامتلك وضوح المشهد أيقن بها وأبصرها تتزف غديراً باسماً يجذب ويستبقى من وردها أو دنا منه.

ولما صار منهم على أدنى مسافة تسمح له بمواصلة إيابه دونما أن يلفت انتباههم أو إثارة ارتيابهم، ارتبك هنيهة وحك فيها شعر رأسه دلالة تردده وتوجسه جراء ما خلفتها فيه لقاءاته السابقة مع الناس، وحدث نفسه: "لن أخسر إذا وافيتهم وأنا أتظاهر التماس العين للشرب من مائها، فإن آنست فيهم رزانة وعقلاً كلمتهم وإلا أسرعت مغادرًا".

ثم هز رأسه كناية عن إعجابه بالفكرة وانعقاد عزمه عليها، ثم عندها تقدم بخطى واثقة نحوهم.

وكلما اقترب أكثر ازداد ثقة واندفاعاً، وهذا ثمرة التفكير قبل القرار وتحديد الخيار. رغم جهله حتى الآن بحقيقة ما يجري هناك. إذ لو علم بما يدور لربما عاجل المغادرة والانصراف أو لربما اندفع بقوة مائة حصان استجابة لنخوته ونداء مروءته التي ورثها عن أبيه رغم حداثة سنه وغضاضة تجربته فالمروءة في بلاده لا تعرف سناً ولا حدوداً.

وحالما أوشك أن يصلهم وكان على بعد أمتار منهم وضح له ما يحدث أمام عينيه إذ رأى أمامه السفالة والنذالة بعينها. لم يفكر كثيراً. اندفع نحو الشباب بكل قوته وأخذ ينتهرهم عما يقومون به وصاح بهم أن يتركوا البنت وشأنها وأن يتوقفوا عن إيذائها وعن التحرش بها.

إذ كانوا يرشقون عليها الماء ويرمونها بكلمات بذيئة ونابية، وأحياناً كان يتجاسر أحدهم على شدها من طرف ثوبها، وآخر قد كفأ لها جرة ملأتها ولم يسمح لها بتناولها. كل هذا كان يحدث وسط قهقهاتهم العابثة المقيتة.

أما هي فقد كانت تدافع عن نفسها وعن شرفها بكل جوارحها كاللبؤة الجريحة وتزجرهم عن طيشهم بكل ما في صوتها من قوة وكانت أيضاً تهددهم من محاولة المساس بها وتتوعدهم بأقاربها وإخوتها.

لم يعجبهم تدخله وتصديه لهم، وحملهم طيشهم على التطاول عليه هو الآخر بالسب والشتم ثم أغرتهم كثرتهم على التمادي عليه في الضرب واللكم استضعافاً له واستخفافاً به.

وكان المسكين من كثرة الأيدي المصبوبة عليه صباً ينترس بكلتا يديه على وجهه ورأسه دون أن يعبأ بما تناله رجلاه من الضرب إلا الحالات التي كان ينزل بهما على بطنه عندما كان يشعر بضربة قوية تهز أحشاءه ويشعر أنها تتقطع. ولم يكن يخرج عن حالة دفاعه إلا نادراً، وإذا ما أتيح له أن يضرب أو ما يشابه الضرب تكون ضربته كمن يصطاد ذبابة بالعتمة بكف يده حسب طنينها، ولم تسعفه صيحات البنت وزجرها لهم وهتافها له مشجعة إذا ما صدرت منه محاولة لضرب أحدهم. فكان بلا ريب بالمعركة وحيداً. ولما خارت قواه ولم تعد رجلاه قادرتين على حمله تهاوى أرضاً وهو يصرخ بصوت متذلل أن يتركوه.

وفعلاً، بعد سقوطه تركوه وغادروا تواً ليس استجابةً لطلبه وإنما فزعاً من أن يكونوا قد أفرطوا في ضربه إلى حد الموت مخدوعين بالإغماءة التي أصابته، ولأن أحدهم نبههم إلى أشباح تلوح من بعيد تعدوا حثيثاً نحوهم.

عند العصر أفاق من غيبوبته وشعر أن عليه أن يكد ويجتهد ويتألم كي يفتح عينيه كما يحاول الطفل فتحهما عند ولادته. ثم أخذ يدور بعينيه حوله بانتاد فوجد أناساً لا يعرفهم يحيطون به من كل جانب خالطت

وجوههم البشاشة والدهشة. ثم صار يسمع منهم عبارة "الحمد لله على سلامتك" وكأنها في حالة تسابق على أذنيه.

ولما حدق النظر أكثر استطاع أن يميز من بينهم البنت التي دافع عنها، وكانت تقف إلى جانب إخوتها الذين كانوا هم الأشباح حينما حضروا إلى العين عندما استبطئوا رجوعها، فانشغلوا به عن اللحاق بالمعتدين عندما عرفوا نجدته لأختهم.

وكانوا قد حملوه إلى بيتهم كي يواصلوا العناية به وتطبيبه إذا احتاجت الضرورة. ثم ظلوا طوال الوقت ملتفين حوله وقلوبهم تختلج قلقاً عليه وإقبالاً جامحاً نحوه، فالقلوب بفطرتها تميل بكليتها إلى صاحب النجدة والهمة العالية. أما هو فلولا حياؤه ومروءته لبقي محملقاً بها لا يحيد عنها إذ أن ملامح القلق التي بدت عليها قد ألبستها حلة من الجمل الطبيعي الرائق على جمالها الفاتن أصلاً فزادها حسناً وسحراً يخطف القلوب والأبصار ويبتز من الناظر تنهيدة انبهار تفضح القلب وأشواقه وشغفه.

بطلوع الروح قد أزاح نظراته عنها مجبراً وعلى مضض لكن ليس قبل أن يقرأ منها تلك الكلمات التي لا تقال في مثل هذا المقام إذ أن لغة العيون في حالتها أبلغ وأفصح لا تعرفها إلا القلوب المحبة. وإذا كانت عيونه قد أطاعته بفعل الظروف فإن قلبه قد عصاه وتأبى عليه، وبقي مرابطاً عند من أحب وهوى دون مبالاة بصاحب القلب أو بصاحب

البيت. فقلب الحر من الرجال يتعلق بجبلته بالبنت العفيفة التي تنافح بضراوة عن عفتها ونقائها الكلاب المسعورة المنفلتة وإن تكاثرت عليها.

ولما حاول أن يجلس على السرير الذي رقد عليه سارعوا إلى مساعدته إلا أنه قد وجد نفسه قادراً على الاستقلال بحركته. شكرهم وأبلغهم بلباقة من يعرف الأصول أن ليس ثمة حاجة إلى مساعدته في الجلوس. لكنه ما أن ارتفع حتى أحس بألم طفيف يجلس على نقطة معينة في قافية رأسه كانت السبب لإغمائته تلك. مد يده يتحسسها وود لو يتاح له أن يطلب مرآة يستطيع أن يرى بها محل الألم. اكتفى بالمتاح. نظر إلى أنامله واطمأن على سلامة رأسه من الجروح. ثم ما هي إلا لحظات حتى أحس أن بمقدوره المشي رغم ما ناله من رضوض وكدمات. ولم تكن ثمة حاجة إلى مساندته إلى مائدة الطعام التي أعدتها صاحبة البيت لهم.

تعليق

كنت قد وصلت بالكتابة إلى هنا في عصر يوم الأربعاء 2009/12/2 على أساس استئناف الكتابة في صباح الغد. واعتدت ألا أعمل على تخبئة المخطوطات التي أنجزها حينما أفرغ منها. وإنما كنت أضع بعضاً منها إلى جانب سريري على ما يشبه المنضدة، والبعض الآخر كنت أركنها في الرف التابع لي من الخزانة.

قلت لم أخبئها لأنه درجت عادة إدارة السجن أن تقوم بين فينة وفينة من إجراء حملة تفتيشات عن ممنوعات ومواد كتابية يعتبرونها مناهضة.

وبما أنني لم أخبئ مخطوطات هذه الرواية هذا يشي أنني لا أكتب شيئاً ممنوعاً ومناهضاً للاحتلال. وليس ثمة حاجة إلى هذه السرية. أي بالعربي أنني أحسنت الظن بالبشر الذين على الجهة الأخرى من المتراس.

لكنني فوجئت في قناعتي وحسن ظني. حيث قامت الإدارة بمداهمة زنزانتي، التي أسكن فيها مع سبعة أسرى آخرين، للتفتيش. وهذه المداهمة أتت على شكل مفاجئ ومباغت ونحن نسميها بعرف الأسرى "كبسية".

ودفاتري كانت هدف الحملة على ما يبدو. إذ أنهم صادروا أربعة عشرة دفتراً من عندي. وكانت المداهمة المفاجئة من ليلة الخميس الساعة التاسعة والنصف مساء.

وكنت قد وصلت في عملية الكتابة إلى مرحلة التبييض أي أنهم أخذوا من عندي الدفاتر الأصلية ودفاتر التي أبيض عليها.

قضيت تلك الليلة قلقاً ومضطرباً. والأهم أنني لم أتوقف لحظة عن لوم نفسي في حسن ظني الذي أبديته للعدو.

وما إن تنفس الصبح حتى هرولت إلى الأسير المتحدث باسم القسم لكي يطالب الإدارة بإعادة دفاتري التي صودرت مني.

ولما عدت إلى زنزانتي بعد انقضاء وقت نزهتي في الفورة (ساحة للنزهة) وأنا أشعر أنني قد عملت أقصى ما لدي فعله. ولم تكن إلا دقائق حتى جاء المتحدث ومعه دفاتري. عددتهم فلم أر إلا عشرة. أي تبقى لي عندهم أربعة دفاتر.

ووصلت إلى التبييض بالضبط عند الدفاتر التي لا تزال بحوزتهم أي أنهم قد بتروا المشروع. وإذا لم يعيدوا لي الدفاتر فليست لدي القوة والرغبة لاستعادة الكتابة لأنني أشعر أنني مستنزف ذهنياً، وخصوصاً أننا في أجواء تبادل أسرى.

الحل الوحيد الذي بقي أمامي هو ممارسة المزيد من الضغط على الإدارة لكي تعيدها. وفعلاً بدأت بتوجيه الضغط على مسئولي القسم من الأسرى ليقوموا هم بالضغط على الإدارة.

وظلوا يمارسون هذا الضغط بشتى الطرق حتى خضعت الإدارة أو لربما قد "اقتنعت ببراءة" المخطوطات. وأعادتها لي بعد أسبوع في تاريخ 2009/12/13.

ثم بعدها استأنفت بجد ونشاط دائب حتى أنجزت التبييض في وقت قياسي. طبعاً قياسي بمقاييس السجن.

وحالما فرغوا من الطعام دخلت البنت على استحياء وهي تفرك أصابعها بلا وعي، وتقدمت نحو أخيها الكبير وهامسته بأن يطلب من الضيف بأن يستحم ويغير ملابسه. وأرادت أن تقول له بأن يستريح عندهم بضعة أيام ريثما يستعيد عافيته كلياً إلا أن حياءها قد غلب قلبها واقتنعت بنظرة من طرف عينيها. ولما تلاقت العيون ارتعش قلبها وتورد خدها، وأحست على الفور في نفسها أنه يقول لها: "إني لابث". لكن هذا يبقى ظن المحب، إذ أن المحب عند تعذر الإفصاح والتصريح يتعلق بالإشارات والأوهام فيفسر أية حركة أو أية لفتة من محبوبه بما يطابق هواه وعلى أنها رسالة من قلب ملتاع. أما هو فعندما دخلت ووقعت عينه على عينها زادت دقات قلبه وكأنه في ساحة حرب وأخذت كلماته تضطرب وود من كل قلبه لو تجلس معهم كي تبقى أمامه حتى لو لم يكلمها أو تكلمه إلا أنه سرعان ما تجالد وتماسك. لكنه صار يتكلف الحديث تكلفاً إلى أن خرجت.

عند الغروب كانت نفسه قد امتلأت طمأنينة بهم ومحبة خالصة لهم، واستأنس بما لاقاه من ترحيب واهتمام، ولم يتردد ولو برهة عندما سألوه عن سبب مروره من ناحيتهم أن يجيبهم الحقيقة دونما تلعثم أو مواربة.

وما أن سمعوا جوابه حتى ارتسمت على وجوههم ملامح القلق والذهول. إذ أنهم عرفوا قبل أيام ما حل بقريته الشروق حيث كانت أخبار نكبة القرية قد تناقلتها الألسن من بلد إلى آخر كانتقال الدم من وريد إلى وريد في جسم الإنسان.

ذهب ظنهم إلى أنه إنما خرج لإنقاذ بلده بإيجاد القنديل الذي لا ينطفئ فهم يعرفون مطالب القرية الكبيرة التي اشترطوها على قريته. ثم بدأوا يتطاولون على القرية الكبيرة وينعتوها بالغطرسة والمستكبرة وأنه لا يحق لهم ما طلبوه وما كان بوسعها أن تتجبر على قريته ويتجاسروا عليها لولا استضعافهم لها واستخفافهم بها وبأهلها.

كان هو يسمع ولا يفهم وظن نفسه مشوش الفكر شارد الوعي جراء الضربة التي تلقاها على قافية رأسه، فمد يده من جديد على مكان الضربة وكأنه يلومها ويعنفها ويرى فيها سبب اضطراب فهمه وتعطل عقله هكذا بدا له. فطفق يعدل من جلسته وهيئته ليسدل ستاراً يحجب به عنهم ارتباكه وتلبكه دونما نجاح.. إذ لم يكونوا يحتاجون إلى قوة نظر كي يستشفوا شدة اضطرابه وتفكك اتزانه رغم الستار. فخالوا في الأمر التباس إذ أنهم اعتقدوا أنه خرج من قريته بعد الأحداث وهو يعرف ما جرى فيها. لكنه بعد الذي اعتراه ظنوا لوهلة أنه لربما ليس من قرية الشروق وأنهم أخطأوا التقدير فاستعصى عليه فهم ما قالوه فاعترتهم رعشة تأنيب، فالتمسوا في داخلهم العذر له ثم صاروا ينظرون إلى بعضهم نظرات العتاب على تسرعهم وتهورهم ثم كتعويض سارعوا إلى توضيح ما قالوه وأخذوا يفسرون له ما كالوه للقرية الكبيرة على أنها كانت محاولة منها لتطويع واستذلال قرية اسمها الشروق. ثم أرادوا أن يتوسعوا بالشرح فاستوقفهم من فوره بمجرد سماعه اسم قريته وقد امتقع لونه وتغير حاله وبدت عليه مظاهر القلق والجزع، فانتصب في قعدته

وقال وهو يشير بسبابته على صدره بلهفة الظمآن عند طلبه الماء: أنا من قرية الشروق ماذا جرى فيها، أخبروني. وبقي محملقاً بهم وباتت عيناه غائرتين وأصغر من المعتاد ويظن الناظر إليه من بعيد أن لديه خطاً أسوداً واحداً فوق عينيه لتقطبه وتجهمه، فاستثار فيهم منظره مزيداً من العطف والحنو وأيقنوا أنه لا يعرف ما حدث بقريته وأنه لا بد غادرها قبل حلول المصيبة عليها. فارتبكوا جميعاً وشعروا أنهم بدل أن يكحلوها أعموها. تبعثرت أفكارهم واحتاروا في أمرهم: هل يقولون له الحقيقة أم يتركوه ليكتشفها بنفسه وينازلها وجها لوجه مع أهله وربعه. وكانت **(مريم)** أكثرهم ارتباكاً وارتجافاً إذ أنها خافت إن قيلت له الحقيقة يسارع في نجدة قريته كما سارع في نجدتها عند محنتها فهو لا تعوزه النخوة. فيسارع عقد حبهم الذي أبرم من قريب إلى الانفراط فازداد قلبها خفقاناً واهتزازاً واحمر وجهها من فرط التوتر والترقب، وصارت مثل من تنتظر في قرعة هل يخرج اسمها لتُلقى في البحر من داخل السفينة كي يخف حملها وتسير أم تفوز بالحياة.

6

خروج (**عامر**) مع (**راتب**) للبحث عن القنديل لم يكن سهلاً البتة إذ كان ينبغي عليه فوق إقناعه لأهله أن يقنع خطيبته (**نجوى**) التي يعلم أن تخييرها بين غيابه عنها وبقائه في القرية كتخييرها بين الموت والحياة. لذلك ما إن غادر السنديانة حتى طاوله الكمد وتلبسه القلق عليها. وصارت تتراءى أمامه وهي تقاسي بعده مر غيابه، فأحياناً يتخيلها وهي جالسة في غرفتها تبكي على سريرها بانتحاب وأحيانا يتخيل قلقها على صورة ذئب ضار ينشب مخالبه في جسمها ويغرز في لحمها أنيابه. استاء من هذه التخيلات وطرحها من ذهنه ولم يسمح لها بمراودته، وعض على أسنانه ثم قال في نفسه: "سأذهب يعني سأذهب".

هو حاول إظهار هذا الإصرار كمحاولة مع نفسه كي يحبس ويغالب جمرة لوعة فراقها التي أخذ يحس بها في قاع قلبه فأراد أن يكبحها قبل أن تشتعل وتلتهم ألسنة لهبها جدران قلبه وكل أحشائه فتحوله إلى جثة هامدة لا تقوى على النهوض بالمهمة التي اقتنع بها بكل عقله وجوارحه، وهو أيضاً لا يريد أن يخذل (**راتبًا**) صديقه وشقيق خطيبته.

لم يشأ (**عامر**) أن يفاتح أهله بالموضوع، وإنما أراد أولاً أن ينهيه مع (**نجوى**) لأنها أن أصرت على عدم ذهابه فلن يذهب. حتى لو نال موافقة والديه ومباركتهما. لذا اختار أن يرصد طاقته وعواطفه لإقناع (**نجوى**) بدل أن يستنزفها مع والديه.

كان كلما تحرك لزيارة (**نجوى**) يحس في العادة بطول الطريق وبعد المسافة، فلا عجب أن كان يجد في خطوه حتى يختصر الزمن للوصول إليها والاستئناس بقربها، ولو كان يتسنى لأحد أن يُطل في رأسه فلن يجد سوى (**نجوى**) الحسناء والحبيبة إلا هذه المرة، فإن رأسه كان يعمل كالرحى التي لا تفتر عن الطحن، تطحن بين حجريها أفكار وحسابات وتحسبات على طريقة الاستفهام: "هل ستوافق؟ وإذا لم توافق ماذا سأفعل؟ وكيف سأقنعها؟". أسئلة تطحن في رأسه من فور أن خرج من بيته دون أن تنتج إلا القلق والتوجسات.

عند عتبة بيتها امتلأ ذهولاً. إذ تفاجأ من سرعة وصوله، وقف واستدار إلى جهة بيته وكأنما يعاين الطريق التي أتاها ليتأكد أحقاً قطعها وأنه الآن أمام بيت (**نجوى**).

زم على شفته السفلى وهز رأسه مستغرباً، وبدت هذه الهزات وكأنها أسقطت كل ما طحنه رأسه ثم أخذ يصعد الدرجات نحو الباب ورأسه خالية من أية فكرة أو خطة يفاتح بها الموضوع مع (**نجوى**).

وقت زيارة (**عامر**) لـ (**نجوى**) على الأغلب ثابت معروف لذلك استغل (**راتب**) هذه المعرفة لصالح مشروعه حيث تعمد مفاتحة والديه قبل

وصول **(عامر)** بوقت قصير، وعزم أن يكلمهم عن العمل في القرى الكبرى ولم يرد أن يبوح لهم بصراحة عن هدف الذهاب إليها لأنه كما حكم على نفسه أنه سيعجز في إقناعهما ولن يصل معهما إلى تفاهم لأنهما يريان في البحث عن القنديل جهلاً وتبديدًا للوقت وتكليفًا للنفس فوق طاقتها، لكنه كي لا يكذب بحث عن أسلوب يواري فيه هدفه الحقيقي ويحمل المعنييْن فقال: "سأذهب إلى القرى الكبرى للعمل والعلم بما يعود بالنفع لي ولقريتنا".

تفاجأ الوالدان من طلبه إذ لم يعتد أهالي القرية مثل هذا الطلب من أبنائهم ولم يسبقه أحد في العمل خارج القرية.

في البداية رفضا طلبه ودخلا معه في نقاش يلفه عاطفة الأبوة والأمومة كي يثنيا عزمه ويقنعانه بالرضى بالفلاحة وبقائه بقربهما. في هذه الأثناء دق **(عامر)** على الباب. بالطبع كانت **(نجوى)** هي التي بادرت إلى استقباله والولوج به إلى داخل الدار لكن ليس دون أن يسرق **(عامر)** هنيهات معها عند الباب كما جرت عادتهما يغازلها بعينيه وتغازله ويشبع منها منفرداً وتشبع منه قبل أن يلتموا جميعاً في غرفة الاستقبال التي كاد يملها. وكانت هذه الهنيهات بالنسبة لـــ **(نجوى)** روح الحياة ولباب السعادة، وعندما يصافحها ويمسك بأصابعه الخشنة أناملها البضة تشعر أنها اختصرت السعادة كلها والفرحة كلها في هذه الوقفة وهذه اللمسة وهذه النظرة وكان قلبها يجيش في كل مرة رغبة فياضة لأن يبقيا واقفين

طول السهرة عند الباب إلا لحظة مصافحته لأهلها عندما يهم بالانصراف بعد انتهائه من الزيارة.

ثم لبث أن دخل الهوينى برفقة **(نجوى)** إلى غرفة والديها حيث يتناقشان مع **(راتب)** الذي ما أن أحس به حتى توجه إليه قائلاً: إذا سمحت يا **(عامر)** انتظِرنا أنت و**(نجوى)** في غرفة الاستقبال ريثما نلحق بكما.

ثم غمزه بجفنه غمزة أفهمته أن عليه أن ينتهز فرصة خلوتهما من أجل الحديث مع **(نجوى)** حول موضوع القنديل. صافحهما **(عامر)** ووجهه يقطر فرحاً بهذه الخلوة التي لطالما انتظرها وتمناها ثم غادرهم جذلاً ممسكاً بيد خطيبته رغم معرفته أن خلوته هذه إنما لمهمة عمل وليس لمهمة غزل.

كان **(راتب)** يعرف أن **(عامرًا)** لن يحتاج إلى كثير وقت لإقناع أخته إذ أنه كان قد شق أمامه طريقاً أزال منها كل عائق، وردم فيها كل وهدة ورصفها بأحجار موافقتها، وما عليه سوى اجتيازها سريعاً قبل وصول والديه.

ولكي لا يترك للتبرم مكاناً عند والده ابتدره بالقول عن إصراره الذهاب للعمل والعلم، وأنه سوف يحاول ألا يتأخر في العودة إليهما. وكان هو يتكلم معهما حريصاً بأن يُجيل ببصره على أبيه وأمه لكي يضمن بقاء ارتباطهما بحبائل حديثه فيؤخرهما عن **(عامر)** وأخته.

كاد **(عامر)** أن يشرق بالفرحة والسعادة التي امتلأ بهما كيانه لسرعة موافقتها المتمنعة أو بالأحرى لعدم إبداء معارضتها التي خشيها وتحسب لها كثيراً.

ولولا لهفتها الملتهبة لاستغلال مدة الخلوة معه لتبادل عبارات المغازلة والتحبب لما سارعت في إبداء موافقتها على رحلته إذ أن خلو زياراته من مثل هذه الخلوة أثمر له الموافقة السريعة والمغازلة المحبوبة على قلبه والتي فجرت فيه الحبور والسرور. إذ في هكذا حالات تسري في حنايا الخطيبة وأوصالها هزات طرب لذيذة وهي ترى خطيبها وهو يَتَفَتل ويتلوى ويخاتلها يمنة ويسرة وهو يحاول إقناعها لموافقتها على ما يريد، فتعمل على إطالتها. لكن **(نجوى)** ضحت بهذه الإطالة اللذيذة لتهنأ بسعادة أكبر وهناء أعظم من سحر نظراته المدوخة العميقة ومن غدير كلماته العذبة الرقيقة التي تُنعش فيها رعشة لذيذة تشعرها أن جسمها قد تفكك إلى ذرات خفيفة تتلاشى بها عن ذاتها لتعود بعدها بميلاد حياة جديدة.

حرص **(راتب)** بعد أن نال من والديه الموافقة على ذهابه للعمل والعلم، وإن كانت موافقة عارية من أية رغبة أو حماسة، أن يسبقهما إلى غرفة الاستقبال ليخبرهما بالتكتم عن الوالدين بحقيقة الرحلة وأن يبقى موضوع القنديل في طي السرية.

عندما انتهت زيارته، وقبل وصوله إلى باب الدار الخارجي حيثما يودع فيها **(عامر)** خطيبته أسر له **(راتب)** بأن يتكتم هو الآخر على هذه الحقيقة عن الجميع وخصوصاً والديه.

عندما انطلق في الفجر نحو قرى الغرب، انطلق وهو يمتطى صهوة الإصرار الذي لا يعرف الفتور، وكان مدفوعاً بحماسة ورغبة فوارتيْن لم يسبق له أن أحس بمثل قوة دفعها قط. وغير مرة خاض غمار أفعال ومهام صغيرة وكبيرة منفرداً أو مع أهله لكنه لم يلحظ أن استشعر فيها ما يحس به الآن من طاقة وقدرة واندفاع نحو تحقيق هدفه تسكب فيه الإحساس الجامح باستنفاه ما قد يعترضه من مصاعب ومتاعب في أثناء رحلته لدرجة أن استشعاره بهذه الأحاسيس وهي تمور جياشة في نفسه جعلته يتساءل بينه وبين نفسه عن سبب هذه القوة وهذا الاندفاع.

وبعد إغراق في التفكير وهو سائر في دربه وقف حسب رأيه على سبب ذلك فقال لنفسه هاتفاً: "إنه الإيمان.. نعم الإيمان بالهدف النبيل هو الذي يهب الإنسان المكافح هذه القوة وهذه الاندفاعية، والإيمان كما أحس الآن لا يشترى، وإنما يأتي ثمرة المعرفة.. المعرفة بما أحتاج وبما هو ضروري وما هو لصالح بلدي.. وأيضاً يا **(عامر)**".

سكت هنيهة وصار يحك رأسه بسبابته اليمنى ثم دفع حاجبيه إلى أعلى مع بقاء عينيه على أرض الطريق كيلا يتعثر، وقال مستطرداً وكأنه يخاطب تلميذاً أمامه: وأيضاً الشعور بالمسئولية.. نعم الشعور بالمسئولية ثم هز رأسه عدة هزات، وكأنه يربت على كتف نفسه فرحاً بما قد توصل إليه من معرفة هي ثمرة تفكيره. على الأقل هكذا شعر.

وثمة شيء لذيذ من الشعور يعتمل بصدره وشكل رافداً آخر لحماسته ورغبته. لكنه لم يجاهر به لأُذنيه وإنما احتفظ به لنفسه مكتوماً: وهو

رغبته في العثور على القنديل كي يثبت لـــ **(نجوى)** قدرة خطيبها على النجاح وتحقيق إرادته، وأيضاً ليكافئها به على حبها وإخلاصها له، فيقدمه لها هدية كدليل منه على عمق حبه لها وأنه مستعد أن يخوض الصعاب ولجج لمجهول لأجل إسعادها وجعلها متميزة ورفعة رأسها بخطيبها بين أترابها من فتيات القرية.

كان **(عامر)** يعرف أن عليه البحث عن الكوخ خارج حدود القرى أو المدن التي ستصادفه. وكان شديد القناعة ألا يدخل إلى داخل القرى والمدن إلا لضرورة تتطلب مخالفة قناعته لأنه كان فائض الحماسة للعثور السريع على القنديل قبل غيره كي يعود به ظافراً إلى قريته وإلى حبيبته التي ملأت عليه أحاسيسه وعقله ولم يعد يرى سواها أو يحس أصلاً بوجود غيرها ليس تكبراً على جنسها وإنما أحاسيسه ومشاعره باتت مشدودة إليها، بخيوط حب حريرية غير مرئية عصية على النكث من أي فتاة تحاول إغرائه حتى لو بلغت من الحسن منتهاه.

كان يقطع القرى قطعاً. سريعاً كالطائر، ولا يخشى أن ينام بالليل خارج القرى، ولا يتردد في تناول الحديث مع من لقيه. وبطريقة ذكية وكأنها عرضية يسألهم عن الكوخ دون أن يزج بنفسه في خانة السخرية أو الحرج.

كان طيب العشرة خفيف الظل يؤلف بسرعة ولا يحب أحدٌ ألفه مفارقته، وكان لا يخاف على بشرة وجهه سفع الشمس إذ كان قمحي اللون، وقمحيته فيها صلابة وفيها صفاء وفيها بريق كبريق الصوان

تنبعث منه إشعاعات تأسر الأفئدة وتخلب الألباب. وكان يمتلك قدّاً رشيقاً وشعراً ناعماً سابلاً يرده إلى الوراء. لو كان أطول بقليل مما هو عليه لكان روعة جمالية رغم حسنه كما هو.

في أواخر الأسبوع الثاني من عملية بحثه كان قد التقى مع ثلاثة فتية. يمكن وصفهم بالمغامرين من الذين تدفعهم نفوسهم إلى اقتحام المجهول واكتشاف المخبوء. ولا يبالون لو بقوا في البراري أو في الغربة شهورًا متواصلة بعيدين عن أهاليهم.

ميولهم إلى حب المغامرات واقتحام المجهول ومطاردتهم للمتعة من أي نوع كانت هي التي جمعت بينهم وجعلتهم مشدودين إلى بعضهم كالحبل المفتول بإحكام، ونادراً جداً ما يفترقون.

كانت النار هي سبب اجتماعه بهم إذ كان قد شاهد ضوءها وهو ينبعث من بعيد وكأنه يستدعيه ويجتنبه. وهو قد استجاب لنداء فطرته دونما تردد أو تلكؤ حيث جبلت الفطرة على أن تميل من بالعتمة إلى النور كما تميل من بالبرد إلى الحر وكما يميل الذكر إلى الأنثى.

حينما وصلهم ألفاهم منغمسين في حديث هو أقرب إلى اللهو منه إلى الجد، وكانوا متحلقين حول نارهم يصنعون على حرها الشاي. نفدت إلى أنفه رائحة أخاذة هي حزمة من الروائح: رائحة البر والسرو والدخان علاوة على رائحة الشاي التي اندست بين الروائح فجعلت منه مزيجاً رائقاً رائعاً ينهزم أمام سحره أعتى الرجال.

رحبوا به كما يحبون أن يرحب بهم كمغامرين، وثارت فيهم غريزة استكشاف المجهول واستصحاب الغريب. ولما كان هو مجهول الهوية والغاية وغريباً عنهم استمسكوا به وكأنه هدية أمطرتها عليهم السماء وحالما ذاقوا فيه حلاوة حديثه وخفة روحه ازدادوا به اعتصاماً. وهمس في قلوبهم حسهم المفعم بحب المغامرة أن يحرصوا على ضمه إليهم حتى يكوِّنوا معاً مجموعة مغامرة من أربعة أفراد.

كان هو أكثر حذراً منهم وأبطأهم على الائتلاف معهم إذ أنه لا يعرف أصلهم ولا فصلهم لذلك حافظ على مسافة منهم ريثما يسبر غورهم ويعرف كنههم.

ولكن على الرغم من تحفظه في الإسراع إلى إبرام علاقة معهم إلا أنه استشعر بداخله برغم رغبة في مصاحبتهم إلا أنها لم تتفتح إلى درجة تدشين علاقة بهم تقوم على الإخلاص والثقة.

وبعد أن مضى نصف الليل وهو يسامرهم أخلد إلى النوم بمكان ليس بعيداً عنهم. وقد أعطوه كيساً معداً خصيصاً للنوم.

في داخله أعجب باتخاذهم كافة التدابير التي يحتاجونها في مغامراتهم وخصوصاً أكياس النوم التي أحس فيها براحة كبيرة أشعرته أنه ينام على سريره الذي في البيت.

كانت أحاديثهم في أول هجوعه تصله وكأنه بينهم سوى أنه لا يتفاعل معهم. لكن سرعان ما ضرب تفكيره بهم سداً يحجز عنه أحاديثهم. بدا وكأنه في صومعة معزولة تتيح له التأمل والتفكير الهادئ.

هجس في نفسه أنه إذا كان لا بد من مصاحبة فينبغي عليه أن يصطحبهم معه لأن مغامرته هو تنطوي على هدف رفيع بيد أن مغامرتهم لا تنطوي إلا على تحصيل المتعة أينما كانت. حدّث نفسه قائلاً: "لن أخسر إذا رافقوني.. بل على العكس سيؤانسونني في وحدتي وتكثر عيوني في التفتيش".

طبعاً هذا التفكير يتطلب إخبارهم بغرضه من رحلته لذلك تقلب كثيراً على جنبيه وعلى ظهره وهو يقلب الأفكار في رأسه وأحياناً كثيرة بدا مثل السمكة الحية وهي تتقلب في المقلى.

وظل هذا حاله حتى غلب النعاس جفونه.

ثم أصبح وهو يعتزم أن يخبرهم بقصة القنديل إذ هجس في نفسه أن كونهم مغامرين فلسوف لا يعنيهم من الأمر سوى متعة البحث والتنقيب والعثور على الكوخ. إذ أن سعي المرء واجتهاده لتحقيق هدف ما في حياته تجلب له المتعة الروحية والسعادة النفسية تجعله يتعالى على العراقيل والمتاعب التي ستواجهه وسيستمتع بمنازلتها ومحاولة تذليلها وتطويعها. ثم كرر الهاجس في خلده: "أنهم إذا كانوا بحق مغامرين فلسوف يتهافتون على هذه المتعة الكامنة التي أحملها لهم دونما تأخير أو تفكير". ثم أخذ يتثاءب باسترخاء لذيذ سامحاً لكلتا يديه التمطي بهناء خارج كيس نومه وتعمد كبح ما يصدره التثاؤب من حمحمة كيلا يكون سبباً في قطعه عليهم نومهم وكي يتسنى له استطلاع المكان الذي باتوا فيه ولربما يستخبر عنهم أكثر وهم نيام.

وجدهم غارقين في النوم وظن أن وقت إفاقتهم لا يزال بعيداً إذ أحس بما يشبه سحابة رمادية داكنة تكومت على وجه كل واحد فيهم فسَّرها على أنها جوع أرواحهم إلى النوم.

ثم تقدم ببطء وتثاقل نحو الموقد حيث كانت سهرته معهم بالأمس. وجد المكان نظيفاً إلى حد كبير، ولاحظ أن الموقد قد أُطفئ بعناية حتى لا تبقى جمرة تحت الرماد تعبث بها رياح غير متوقعة تشعل النار في الموقد ومنها إلى الحرج.

أعجبه اهتمامهم بنظافة المكان وإطفاء الموقد. لكن لم يرق له كثرة أعقاب السجائر التي لم يستطيعوا التقاطها والتي وشت له عن ولعهم بالتدخين. صحيح أنهم كانوا يدخنون أمامه ليلة أمس وحتى أنهم عرضوا عليه غير مرَّة التدخين لكنه وإن لم ير كبير غضاضة بالتدخين إلا أنه لم يتوقع إسرافهم في التدخين إلى هذا الحد من الجنون، ومع هذا لم يسرف في التفكير بالسجائر إذ لحظ إلى جنب أحدهم أدواتاً لم يفهم كنهها، ولفتت انتباهه بالتحديد قنينة يخرج من أعلاها من تحت الفتحة أنبوب من شمع قد أثارت فضوله واستغرابه إذ لم ير مثلها قط. جاءها ثم مسكها بيده بتردد، وجدها خالية من أي شيء عدا السواد الذي علق بها من معظم جهاتها. ثم شمّها فأحس برائحة غريبة لم ينجح في تحديدها بدقة لأنها لم تكن بالضبط رائحة دخان سجائر، ولكن من ناحية أخرى لم تكن بعيدة عنها. حدق بها بنظرة بلهاء ثم وجه نظره نحو الثلاثة وبدت منه تنهيدة عميقة تائهة ثم أعاد القنينة مكانها وذهب إلى أقرب شجرة سرو وجلس في ظلها ريثما

يصحو، وخال صحوهم سيكون قريباً بسبب اشتداد حر الشمس ووقوعه جزماً على وجوههم العارية.

دهمه في ومضة خاطر بأن يغادرهم ويتخلى عن صحبتهم معه. لكنه سرعان ما قمعه من فوره كيلا يعاود مراودته مرة أخرى، وأخذ يرمقهم بنظرات بدت وكأنما تستحثهم على النهوض، وتلبَّسه خوف من أن يكونوا ممن قلبوا ليلهم نهارًا ونهارهم ليلاً.

لكن ما لبث أن زال عنه الخوف لما شاهدهم يستيقظون الواحد تلو الآخر، وكأنهم تخاطروا على لحظة الصحو، ولوهلة ظن أن لديهم ساعة منبه. لكنه أعرض عن هذه الفكرة من فوره حيث أنه لم يسمع رنينها ولا طنينها.

في داخله سر لصحوهم وشعر أن ثمة رابط يشده إليهم. وتعجب كيف أن كل واحد منهم أخذ جهة مغايرة وكأنهم قسموا أدواراً لأنفسهم ولم تكن إلا بضعة دقائق حتى أعدوا ما يشبه وجبة الإفطار.

لم ينادوه، وإن رأوه من أول صحوهم، إلا بعد أن أعدوا كل شيء وحتى الشاي. استغرب بإعجاب من تصرفهم الديناميكي وكأنهم خلية عسكرية كل شيء فيها يسير بانتظام وانضباط وترتيب.

وقوي عنده الظن أنهم بحق مغامرين وتنامى حدسه بزيادة حظوظ قبولهم الانضمام إليه في البحث معه عن القنديل.

تعاملهم معه يوحي وكأنهم يعرفونه منذ زمن بعيد. تعاملوا معه كأنه واحد منهم أو لربما قرروا أن يتعاملوا معه كأنه واحد منهم دون الرجوع

إليه أو انتظار رأيه. على كل حال، هو شعر بالدفء بهذا التعامل، واستحسنه إلى حد الاطمئنان مما أغراه على مفاتحتهم بموضوع الكوخ والقنديل دون تأخير.

سنحت له فرصة إخبارهم بقصته عندما ابتدره أحدهم من فور انتهائه من تناول الطعام عن سبب وجوده بعيدا عن بلده ثم قال: لعلك مغامر مثلنا ونحن لا ندري!!

ابتسم **(عامر)** فرحاً لأن صيغة السؤال أتاحت له أن يستهل سرد قصته من النقطة التي يشاء.

أراد أن يرد عليه بنفس لغتهم ومفرداتها كي يرفع نحوه منسوب انتباههم لما سيرويه عليهم طمعاً بأن يستفز فيهم إلى أقصى مدى كل عناصر المغامرة الهاجعة بداخلهم فيضمن انضمامهم إليه. قال ووجهه يشع ثقة ونظراته تستدعي تحدياً: نعم.. إنني مغامر.

سكت هنيهة لكي يستجيش فيهم أكثر وأكثر عواطفهم في حب المعرفة ويوجهها نحو قبول التحدي. ثم استطرد: لكن مغامرتي ليست مثل مغامرتكم.. مغامرتي تختلف وإن كنت لا أقلل من جسارتكم ومخاطراتكم.

استطاع بهذا الكلام أن يصل في شد أعصابهم وانتباههم إليه كاشتداد وتر القوس إلى أقصى قوته. لم يبق سوى أن يطلق لسهام قصته عنانها إلا أنه أراد أن يبالغ في اشتداد أوتار أعصابهم فأردف قائلاً محملاً كلماته المزيد من التشويق والإثارة: أن عنوان مغامرتي الكوخ والقنديل.

وشت ملامح وجوههم ما اعتراهم من ارتباك ولهفة في آن.

ثم شرع يسرد عليهم حكايته من لحظة تحركات **(راتب)** ولقائهم بـــ **(الشيخ)** الهرم الذي أشار عليهم بالبحث عن الكوخ.

ولاحظ وهو يقص عليهم قصته كيف ينظرون إليه بعيون جاحظة وجوارح خاشعة وبدوا حريصين ألا تفلت منهم شاردة ولا واردة. انتعش من مشهدهم في داخله شعور المنتصر، وصب فيه مزيداً من الثقة بهم والراحة إليهم. وشعر أن حدسه فيهم سوف لا يخيب وأن ساعة العثور على القنديل قد دنت وأزفت.

ما أن فرغ من سرده حتى أحسوا أنهم قد أفاقوا من حلم. شعر ثلاثتهم أنهم ظفروا بالمغامرة التي يبحثون عنها منذ عرفوا الأحرف الأولى في فعل المغامرات، وغمرت قلوبهم سعادة لا توصف بهذا الصيد الثمين واعتبروا أنفسهم أنهم سيسطرون فصلاً جديداً في عالم مغامراتهم إذ أمامهم الآن مغامرة ذات مغزى وهدف فضلاً عما قد تحمل في طياتها من متعة وسعادة لاسيما مع **(عامر)** الذي شعروا بقلوبهم ميلاً عظيماً نحوه وتعاطفاً كبيراً مع كفاحه.

قرأ ما ارتسم على وجوههم من علائم الفرحة والقبول قبل أن ينطقوا بموافقتهم على الانضمام إليه. ثارت فيه مشاعر الانتشاء ثم تأججت بعد أن أخبروه بشكل من الاحتفالية عن استعدادهم الانضمام إليه في مغامرته، وبدوا من حركاتهم وضحكاتهم كأنهم منغمسون حتى آذانهم في بحيرة من السعادة والسرور.

وفي خضم الفرحة عرضوا عليه سيجارة وأصروا عليه أن يدخنها كما يدخنون ولا يلتفت إلى شعارات الاستنكاف عن التدخين، فالسيجارة كما زعموا له لا تعدو عن كونها وسيلة لتبساط تبدد لديه سحب الكآبة إذا اعترته أو تضخ فيه سعادة إذا خلت نفسه من كآبة، فقال أحدهم مازحاً: هذا يعني أن لا خسارة فيها ولا خلاف فكلها أرباح وأرباح.

ثم علت ضحكاتهم وبدت معها أجسامهم وكأنها تنفض عنها بقايا نعاس.

تردد **(عامر)** برهة لكنه ما لبث أن بادره خاطر سريع بأن يجاريهم إلى أن يعثروا على القنديل ويفترقوا.

تناولها بيده اليسرى. ارتعشت هذه اليد من لحظة حملها إلى أن وضعها بفيه إلا أنه لم ينتبه أو على الأصح لم يرد أن ينتبه لهذه الرعشة.

مضى أسبوع وهم يبحثون عن الكوخ بجد واجتهاد وبتحرٍّ صادق وأمين. لم يلحظ **(عامر)** عليهم أنهم يتعاملون مع البحث كقضية ترف ولهو بل عالجوها كأنها قضيتهم الأولى التي انتظروها منذ زمن بعيد.

كانوا في بحثهم يخططون مساراتهم ونقاط التقائهم، وكانت الحمية لإيجاد الكوخ بادية عليهم جميعهم مما ألهب مشاعر **(عامر)** نحوهم.

أما مواقع سهرهم ونومهم فكانت متعددة الأنماط والأشكال، فمرّة يختارون رأس جبل وتارة في بطن حرج وتارة أخرى إلى جانب عين ماء من أجل تنويع أشكال المتعة والتجربة.

لم يعد **(عامر)** يتردد في تناول السجائر ثم أضحت علبة السجائر لا تفارقه ويسحب منها كلما عنّ له ذلك. بيد أنه كان حريصاً على عدم الإفراط في تناولها وكان معدل تناوله سيجارة واحدة مقابل سيجارتين لأحدهم. وأرضى ضميره وأقنعه أن الأمر مؤقت وطارئ. لكن، لطالما يعرف الإنسان كيف يبدأ لكنه لا يعرف شكل النهاية.

استمراؤه للسيجارة سهّل عليه فيما بعد أن يستجيب بيسر لعرضهم في أن يجرب النوع الآخر من التدخين لاذاً بنفس الفكرة التي أغرته بتناول السيجارة الأولى.

والتدخين هذه المرة كان بذات القنينة التي استقطبَت انتباهه قبل أسبوع عند لقائه الأول بهم ثم علموه كيف يمسكها وكيف "يشفط" منها بأقوى نفس لديه.

استثقله بادئ الأمر وشعر بدوخة أقوى من تلك التي غشيته عند سيجارته الأولى لكنه رويداً رويداً استوعبه رأسه. ثم بعد أن "شفط" حصته من "الأنفاس" واسترخوا على الأرض وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل أخبروه أن هذه القنينة تُسمى بعرفهم "البانغ" ويدلعونه بالتوّاه لأنه يجعلهم يشعرون بالتيه عن واقعهم وزمانهم فلا يعرفون أهم على متن الغيوم أم تحت الأرض أم على ركام من الأوساخ أم تحت الماء. ثم لم تكن إلا لحظات حتى شعر بخَدَر يسري بكل جسمه دون أن يستثنني منه عضواً، وما هي إلا هنيهات حتى لم يعد يعرف بعدها أين هو وما هو إلا بعد أن استفاق قبيل الظهر بقليل على أصواتهم وهم يتنادون للاستعداد

للذهاب لأقرب مدينة حتى يحصلوا فيها على لوازمهم من عتاد ومؤونة، وخاصة ما يكفيهم لسهراتهم الممتعة.. الممتعة جدا!!

لم تصعقه إفاقته المتأخرة من النوم، ولم يندم على الوقت الذي أُهدر حتى الظهر. سابقاً كان يُجن جنونه إذا حدث أن تأخر ساعة عن موعد إفاقته الباكرة، فكيف إذا كانت ساعات.

تُرى ما هذا الخدر الذي لحق بإحساسه بالزمن وأعطب غيرته عليه.

على كل حال، بادر بالاستعداد معهم للرحيل.

7

في اليوم الذي عاد فيه الوفد من طوافه على القرى الكبرى شحبت الأجواء وتجهمت الدنيا بوجوه أهل القرية جميعهم صغيرهم وكبيرهم وشعروا أن كل شيء تحالف ضدهم وأبقاهم وحيدين دونما ظهير ومعين أو مواسياً يربت على كتفهم ويحمل شيئاً من أثقالهم.

لم يبق على الموعد المحدد الذي ضربته القرية الكبيرة على قرية **(أبي راتب)** سوى أسبوع. أي بعد أسبوع تستكمل مدة الشهر دون الحصول على القنديل الذي لا ينطفئ.

إذ أن القرية كانت قد قررت بإصرار عنيد أن لا تسلم القرية الكبيرة عشرة شباب من أبنائها مقابل ابنهم الذي قتل بغير عمد، وكذلك رفضوا بإصرار لا يساوم تسليم أراضيهم مهجة قلوبهم وحدقات عيونهم التي تمنحهم أسباب الحياة والسعادة والبقاء. فقرروا إزاء ذلك وبالإجماع أن يعتصموا بالحل الوحيد الذي بقي أمامهم إزاء جبروت وغطرسة القرية الكبيرة وهو إرسال وفداً من شيوخ القرية يطوف على القرى الكبيرة علها تمنحها أو تبيعها أو حتى تقرضها قنديلاً لا ينطفئ يلقموه للذئب الذي كشر عن أنيابه وشهر مخالبه استعداداً للانقضاض عليهم بلا رحمة أو وجل.

لم يكن فشل الوفد في الحصول على القنديل هو الشيء الوحيد الذي عاد به. بل عاد أفراده وأرواحهم تقطر دماً ونفوسهم يدكها الألم. عادوا وكرامتهم قد انتهكت حتى النخاع وأثخنتها كثرة الجراح، فلم يعودوا يبالون معها الموت ذبحاً أو بنهش السباع.

فقد كانوا كلما دخلوا قرية كبيرة ليطلبوا من كبارها أو وجهائها قنديلاً لا ينطفئ يتعرضون لأصناف كثيرة من الإهانات بعضها بالإيماء الشنيع وخصوصاً من القرى التي تعُد نفسها متحضرة وبعضها بالتصريح الفظيع من القرى التي تُعَد علناً مستكبرة.

ما عدا إحدى القرى التي أشعلت لهم نقطة ضوء صغيرة في آخر النفق وأوجدت لديهم لمحة أمل قصيرة. لكن هذا النفق كان طويلاً وبدا وكأنه يعدم النهاية، ومظلماً وظلمته بدت بلا صبح أو بداية أو نهاية وخالوا حظوظ وصولهم إلى آخره تكاد تكون صفراً لا محالة. إذ أنها اقترحت عليهم مقابل منحهم قنديلاً لا ينطفئ استئجار أراضيهم لمدة مائة عام قابلة للتمديد.. يعني مائة عام بلا أرض.

ومع هذا لم ييئسوا وظلوا لمدة ثلاثة أسابيع يتلمسون حظهم عند هذه القرية أو تلك حتى قالوا بضجر صاخب: كفى.. كفى.

ثم ما إن وصل أعضاء الوفد إلى قريتهم حتى صاروا أكثر المنادين للتصدي بالقوة لأطماع القرية الكبيرة بعد أن خابت مساعيهم للحصول على القنديل وقالوا: إن هذه القرية المتغطرسة كانت منذ زمن بعيد تطمع

بأراضينا الخصبة والشاسعة وكأنها تستكثرها علينا، ولأننا مسالمون وبسطاء اعتبرونا فريسة ضعيفة يسهل نهشها واقتراسها.

واستطردوا إن القرية الكبيرة إنما عرضت عليهم شرطيْن تعجيزيْن لعلمهم المسبق أن أهل القرية لا يقبلون البتة الانصياع لأحد الشرطين ولا يقدرون حتماً على إنجاز الشرط الثاني. لذا سوف لا يبقى أمامهم سوى تسليم الأراضي حسب ما خططت له القرية الكبيرة.

جميع أهل القرية مقتنعون بما قال أعضاء الوفد بأنه فعلاً لم يبق أمامهم من خيار سوى التصدي بالقوة والتحدي لمنع احتلال الأرض والاستيلاء عليها إلا صوتاً أو صوتين قد جنح إلى القبول بتأجير أراضيهم لتلك القرية لمائة عام ولا الخضوع والإذلال للقرية الكبيرة.

لكن سرعان ما أخمدت هذه الأصوات من الجميع وخصوصاً من الشباب إذ رأوا بتأجير الأرض لمائة عام استتباع واستعباد لهم ودليل عجز عن صيانة الأرض وحمايتها بالقوة. وكان الشباب الأكثر تحمساً لهذا الاتجاه، بينما الشيوخ رغم علمهم بأن لا خيار واقعي أمامهم للحفاظ على أرضهم سوى الدفاع عنها إلا أنهم كانوا أقلّ حماسة واندفاعاً إذ اعتقدوا أنهم إذا دخلوا المعركة فإنهم يزجون بأهل القرية إلى محرقة محققة ونكبة أكيدة أمام قوة وحداثة عتاد القرية الكبيرة وكثرة عديدها. لكن ما الحيلة إذا انعدمت الوسيلة.

صارت تُسمع بالآفاق قرع طبول الحرب حيث أخذت القرية تستعد للمواجهة التي فرضت عليهم، ولم يبق أمامهم غير أيام قليلة للحظة التي يحسم فيها مصير الأرض ومصير القرية وأهلها.

وأخذت تظهر القرية شيئا فشيئا وكأنها قلعة عسكرية تقف على فوهة بركان إذ أن الناس توقفوا عن الذهاب للعمل في حقولهم وبياراتهم وبساتينهم، ولم يكن أحد يذهب إليها إلا لغرض إخراج قطعة سلاح دفينة أو أية آلة حربية أخرى كان قد دفنها لليوم الذي لم يرغب بقدومه لكن ماذا يصنع وقد "وقع الفأس بالرأس" حيث لا أحد عاقل يحب أن يستبدل بلغة الكلام لغة السلاح وبلغة الحوار لغة الشجار إلا أحمق قد انتهك واستهتر بجميع اللغات إلا لغة الدم والثكل كما اختارت القرية الكبيرة مع قرية **(أبي راتب)** التي لم يبق أمامها إلا رد العدوان ودحر نوايا الاحتلال.

وكان أحدهم إذا أخرج قطعة السلاح الهاجعة في الحقول ربما منذ الاستعمار الأول كان يأتي بها إلى بيته ويعمل على تنظيفها وتزييتها وصقلها لكي تصلح للحرب والمواجهة. لذلك كان صوت الحديد هو الصوت الطاغي في القرية حتى السيوف والخناجر المعلقة على الحيطان للزينة لم يروا بداً من استخدامها رغم علو قيمتها وتعبقها بذكريات قديمة جميلة. إذ كانوا يقولون ما قيمتها إذا لم تدافع عن حياة صاحبها وكرامته وقت اللأواء والمحن.

غدت أجواء القرية مشحونة والأعصاب فيها مشدودة إلى حدها الأقصى حتى بات الواحد منهم يغضب ويستفز لأتفه الأسباب وأصغرها.

فلم يعد في القرية مكان للحديث والكلام وبات المزاج فيها وكأنه محرم بينهم، وأصلاً مزاج الواحد لم يعد يتحمل المخالطة وصار يضيق حتى بالكلمة الواحدة.

وظهر هذا التوتر والشد للأعصاب والمزاج في أصعب أشكاله عند الشيوخ الكبار إذ يتحسبون لعواقب المواجهة ومصير البلد أكثر من المنغمسين بالحماسة والاستعداد للمواجهة على الرغم من تمازج حماستهم بشيء من تشنج أعصابهم وبعض من الخوف المكبوت والاضطراب المكبوح. ولولا تيقظ الكبار لبقي الشباب منشغلين بالحماسة عن إعداد الخطط والحيل للمواجهة.. ومواجهة العدوان القادم، والتي قد لا تهزم القرية الكبيرة لكنها لربما تزيد من عناد أهل القرية وصمودهم أمام اندفاع المعتدي، وتعطب جزءاً من روح القتال لديهم تجعلهم يفكرون ببدائل وخيارات أخرى تكون متاحة ومحتملة من قبل أهل القرية.

التوتر في القرية لم يَدَعْ أحداً إلا تلبسه، وفي كثير من الأحيان كان يخرجه عن طبيعته وعن صوابه، وحتى الصغار الذين لم يعوا كثيراً مما يحدث قد انتقلت إليهم عدوى التوتر. حتى أن البعض منهم قد تفاقمت مشاكله مع الأطفال الآخرين وبعضهم آثر الانزواء في البيت على حساب طفولته ولعبه في الشارع.

لكن لو اجتمع جميع التوتر في القرية من كبيرهم وصغيرهم ومن نسائهم ورجالهم ووضع في كفه لرجحت الكفة الأخرى التي فيها توتر **(نجوى)** لوحدها. إذ كان التوتر فيها يقضم أعصابها بأسنانه الحادة

كاحتداد أسنان الوحش البري الضاري دون أن تسمع لها أنَّة أو آهة مما عاظم في داخلها القلق والاضطراب وجعلها تذرع البيت جيئة وذهاباً وهي تهرس وتفتت أصابعها غير شاعرة بألمها أو غير عابئة بأنينها، ثم تجلس أينما تقف ثم ما تلبث أن تنهض وتذرع البيت من جديد ثم تشاهَد وهي تدعو وتبتهل إلى الله تعالى بحيث تبدو للناظر إليها أنها تهذي بتمتمة طلاسمية تثير الشفقة. أي أن حالها كان ينفطر له قلب الإنسان ويتصدع له رحمة غير أن والديها على الرغم من مشاهدتهما لحالها إلا أنهما من فرط الغم والكمد الذي تولاهما لم تسعهما نفسيْهما بسؤالها للاطمئنان عليها، ففيهما ما يكفيهما.

ولو عنَّ لهما أن يصيخا بسمعهما لِما تتمتم ولِما تتضرع به لخالوها تهذر وتهلوس إذ أنها عندما صارت تدعو أن يظفر أخوها **(راتب)** بالقنديل الذي لا ينطفئ كي يأتي ويجنب القرية ويخلصها من ويلات المواجهة وسفك الدماء ومن حلول نكبة على قريتها، سمعتْ صوتاً عذباً لذيذاً يهمس في قلبها قائلاً: بل إن شاء الله يأتي الخلاص على يد الغالي **(عامر)**. وظل هذا الهمس يلح على قلبها حتى جعلها تحاكي نفسها وتتجاذب أطراف الحديث بين أخيها وخطيبها. فمرَّة تقول: يا رب على يد **(راتب)** ومرّات كثيرة تقول: يا رب على يد الحبيب **(عامر)** الأغلى من كل غال. ثم لا يلبث أن يطغى على سطح وعيها دنو الموعد الأخير حتى تستعر مخاوفها وتلتهب هواجسها وتشعر من جديد بألم انغراز مخالب القلق والتوتر في أعماق قلبها فيزداد نسيج أعصابها التالف أصلاً تمزقاً

وانسحاقاً فيخونها لسانها مُفرِجاً من معاقله ما يدور في خلدها ويعتمل في صدرها مع شعورها بفقدانها للسيطرة عليه أو قدرتها على لجمه، فلا عجب وهذا حالها أن يرمياها أبواها بنظرات هي مزيج من الاستغراب بالشجن والتوتر بالحنو والحب بالقهر كنظرات الأب الأسير الذي ينظر بلوعة وجوى نحو طفله الذي يقف من الجهة الأخرى للحاجز الذي يفصل بينهما. إذ ما كان يصل إلى آذان والديها لا يشبه سوى التمتمات والهمهمات غير المفهومة والمنغمسة بنبرة مكلومة مكدودة غير مألوفة عليها البتة. وفي داخلهما لم يستطيعا أن يحدداه. أهو البله أم لهذيان بعينه. أم ماذا؟

توقفت فجأة. تنهدت تنهيدة خارجة من أعماقها، وكأنها بها تطرد مخاوفها للحظة فاسحة المجال لسلطان الحب الغالب أن يستبد ويسيطر، فهمهمت بدعاء مشتعل:

يا رب.. يا ذا السلطان القاهر والمجد العالي.. اجعل الظفر بالقنديل للحبيب **(عامر)**.. للحبيب الغالي.

ثم أحست في قلبها برعشة نافضة محبّبة سرت كشحنات كهربائية في سائر جسدها الندي ثم همهمت على حياء: و**(راتب)** يا رب.. و**(راتب)**.

كانت هذه محاولة بائسة منها لاسترضاء ضميرها أو لرشوته حتى يبقى ساكتاً لا يتكلم عن **(راتب)** وخصوصاً باللوم والعتب.

كان اسم **(راتب)** عندما ذكرته قد اخترق أذن أمها فلم تتمالك أن دعتها وسألتها:

ماذا عن (**راتب**).. لقد سمعتك تذكرينه.

سكتت برهة متوترة شبه لاهثة. ثم استطردت: هل تعرفين عنه شيئاً جديداً.

لوهلة عاود (**نجوى**) نفس الخاطر بأن تبوح لهما عن سر (**راتب**) و(**عامر**) لكي تخفف عنهما القليل من التوتر ويرقبان معها مجيئهما بالقنديل كما هي ترقب وتنتظر، فيغنيهما الأمل المزيد من الجلد والقدرة على التصرف السليم لكنها رغم إلحاح خاطرها عليها هذه المرة أكثر من مرّة سبقت إلا أنها أصرت أن تحفظ لأخيها و(**عامر**) سرهما فقالت لها بتردد: لا.. لا أبداً. كنت فقط أدعو لهما أن يعودا سالميْن من رحلتهما.

ثم غرزت عيونها بالأرض حياءً وخوفاً من أن يشي وجهها بكنبتها. ثم استدارت وأخذت تحث خطاها نحو غرفتها دون أن تلتفت يمنة أو يسرة تاركة والديها اللذيْن خلفتهما وراءها منهوكين مكدودين يصيخان لسمع تجاه الباب الرئيسي للدار إذ أن أحد الشباب أقبل صوب الدار وهو ينادي: عمي (**أبو راتب**).. عمي (**أبو راتب**).

فهما منه أنه قادم من عند (**المختار**) حيث التأم لديه كبار القرية لاجتماع طارئ بعد أن شاهد بعض أهل القرية قوات استطلاعية للقرية الكبيرة تحوم حول القرية وعلى ما يبدو لاستكشاف مداخل ومخارج القرية تمهيداً لغزوها بعد انقضاء الموعد النهائي ولربما كي يؤكدوا لأهل القرية صدق وعيدهم وجديتهم.

رد عليه (**أبو راتب**) بهدوء مصطنع:

– اذهب يا بني وسألحق بك إلى دار **(المختار)** بالحال.

في طريق ذهابه إلى دار **(المختار)** والتي على كل حال لا تبعد كثيراً عن بيته برقت في ذهنه فكرة خالها قادرة على إنقاذ القرية من حبل المشنقة المنصوب لها وقادرة على إعادة البسمة والوداعة إلى أهل القرية.

واقفوا جميعاً بلهفة وبلا تلبث على مقترح **(أبي راتب)** وتلقفوه وكأنه حبل نجاة قد تدلى لهم من السماء لنجدة أهل القرية من الكرب الذي لفهم لفاً، ورأوا أن **(أبا راتب)** هو الأنسب الذي ينبغي عليه أن يترأس الوفد إلى القرية الكبيرة كونه هو صاحب الفكرة وسبب المبادرة.

لم يتردد **(أبو راتب)** بقبوله رئاسة الوفد بل تلقاها بكثير من الرضى الممزوج بشيء من الزهو. وصار يمنِّي نفسه أن عسى أن يأتي خلاص القرية على يديه، وخصوصاً خلاص الأرض التي نبتوا عليها وضربوا جذورهم فيها وامتصوا منها عناصر الحياة والأمل والمستقبل، فلا عجب أن يبست أرواحهم إذ عصفت بهم رياح عاتية هددت أرضهم لم يروا مثلها قط.

فلا غرابة أن يكون اقتراح **(أبي راتب)** بالنسبة لأرواحهم كروح الأرض المتصدعة عطشاً تلوح في أفقها غيمة كبيرة تجعلها تنتظر نزول مطرها بلهفة لاهبة لكي تلتحم على بعضها من جديد وتحيا روحها.

صارت عيون أهل القرية تتطلع إلى جهة القرية الكبيرة تنشد رؤية عودة **(أبي راتب)** والوفد الذي معه وهو ظافر بمهمته، وأكف بعضهم

مرفوعة إلى رب السماء أن يكفيهم شر الأعداء والكثير الكثير منهم يفرك أصابعه بلا توقف.

والأطفال رغم أنهم لا يعون كثيراً مما يحدث وما قد يحدث إلا أنه قد تعطلت لديهم الرغبة باللعب، فكل شيء من حولهم صار مضطرباً ليس كما كان، فالأب بات أكثر عصبية والأم لم تعد كما كانت فيما الإخوة الأكبر منهم سناً صارت أياديهم وكأنها قد أُخرج منها عليهم فلم تعد هي الأخرى كما كانت.

فالكبار الآن ينتظرون بنفاد صبر عودة الوفد من القرية الكبيرة ليروا الانفراج في العلاقات وعودة الأمور إلى أدراجها أم الإفراج عن السيوف من أغمادها.

بينما الأطفال ينتظرون أن يعود أباً وأن يعود للأم حنانها وأن تعود أيادي أخوتهم الأكبر سناً إلى عقالها. لقد ملوا هذا الواقع الغريب وملوا الانزواء بالبيوت والعزوف عن اللعب ويتوقون أن تعود قريتهم إلى نفسها وإلى رشدها بأن تعود وتفتح للصغار ذراعيها وتنثر عليهم من حنانها ودماثتها.

(نجوى) هي الوحيدة في القرية التي تتطلع بقلبها وروحها إلى جهة أخرى غير تلك التي يرمقها أهل القرية على الرغم أن أباها هو محل أنظارهم وغاية رجائهم. فهي تذهب بتطلعها حيثما يهمس لها قلبها وتميل إليها روحها ولما كانا مفعميْن بهوى **(عامر)** فهو الذي يحدد لهما الاتجاه

كما تحدد البوصلة للتائه في وسط الصحراء والضال في عرض البحر جهة الشمال وطريق النجاة.

على كل حال، لم يكد ظل الوفد أن يبتعد ويغيب عن دار **(المختار)** حتى أطلوا عائدين من القرية الكبيرة يحملون معهم خيبة كبيرة وقد أظلتهم غيمة سوداء تنذر بعاصفة هادرة قد لا تُبقي ولا تذر.

لكن بالنسبة لـــ **(أبي راتب)** لم تكن فقط خيبة بل وإهانة يصعب تطبيبها كونه هو صاحب الفكرة والراعي لها. فلا غرو أن يكسو وجهه الصفرة والقتامة الداكنة مما أبان وجهه وكأنه اختطف في طريق إيابه فلم يعد يشبه كثيراً **(أبا راتب)** السابق وبات أقرب إلى رجل صفع على وجهه وركل على قفاه.

فالذي حدث معه في القرية الكبيرة يتعسر على النفس الأبية أن تصمد أمامه، فكيف بنفس **(أبي راتب)** المشبعة بالإباء والأنفة فمثله أمام استقبال القرية الكبيرة له بالصورة التي استقبلوه فيها هو والوفد المرافق يقف أمام حالتين: أما أن يتهور وأما أن ينهار.

لكن **(أبا راتب)** إلى جانب كونه أبيٌّ وصاحب أنفه فإنه يتمتع بحس عال من المسؤولية، فهو يعرف أن أية حركة غير محسوبة منه قد تجر قريته إلى شيء لا تحمد عقباه، فيصبح هو سبب الخراب لبلده بدل دور المنقذ الذي تطلع إليه قبل قدومه للقرية الكبيرة.

لكنه لم ينهر أيضاً، وحالته كانت بين التهور والانهيار، لهذا السبب رجع مخطوف الوجه وكالحه. وكثيراً ما يعبر الوجه عما يعتلج به

الصدر. وصدر **(أبي راتب)** وهو عائد كان يضطرب ويمور قهراً وغيظاً ويغص بمرارة الإهانة والمهانة. فحسناً من رجليه أن استطاعتا احتمل هذا الركام الثقيل الذي يضطرم فيه داخله. إذ أن كبار القرية الكبيرة لم يدعوه ووفده حتى إلى الجلوس والتي هي أقل درجات الضيافة. مما اضطر **(أبا راتب)** أن يبلع ريقه مئات المرات، وهو في الحق كان يبلع ما تفرزه روحه من الإهانة التي دُكت بها دكا. ومع هذا واصل **(أبو راتب)** طرح عرضه عليهم وهو يجاهد نفسه ليحافظ على توازنها وضبط أعصابه أمام إلحاحهم على إهانته. فالمقام فوق التهور ولا يحتمل الانهيار.

لقد عرض عليهم باسم قريته أن تتقاسم قريتهم معهم ما تنتجه أرض القرية من غلات وثمار لمدة عشرة سنوات مقابل التنازل عن حقوقهم بخصوص القتيل.

وكان **(أبو راتب)** قد حصل على موافقة كبار قريته أن يزيد المدة إلى خمسة عشرة عام عند المسلومة.

لكن كبار القرية الكبيرة أعرضوا عن هذا العرض بوقاحة صارخة وبصلف مهين. ثم قال متحدثهم بأسلوب ما تحمل كلمة عنجهية من الإهانة والاستهتار والعربدة:

– يجب أن تفهموا أن مطالبنا واضحة: أما أن تسلمونا عشرة شباب مقابل ابننا الذي قتل أو قنديلاً لا ينطفئ.. وإذا لم تسلمونا الشباب أو القنديل عند انتهاء المدة.

سكت هنيهة وجال بنظرة مستعلية على أعضاء الوفد ثم استطرد:

– وقد بقي يومان لانتهاء الموعد المضروب..

قالها وهو يمدد حروف الكلمات وعلى مهل ويشير بالسبابة والوسطى من يده اليمنى نحوهم.

أراد **(أبو راتب)** في هذه اللحظة أن ينتهز الفرصة للحديث لأجل استدراجهم إلى الموافقة على عرضه. واعتزم أن يعرض لهم حول استعدادهم لزيادة المدة. لكن المتحدث أسكته بإشارة مستهترة من يده ثم قال:

– وإذا لم تسلمونا عشرة شباب أو قنديلاً لا ينطفئ فلسوف نجتاح كل أرضكم ونستولي عليها بقوة السلاح وللأبد، وأنتم تعرفون أننا قادرون وأقوياء أشداء.

صمت برهة ثم رفع يده نحو **(أبي راتب)** وقد ضج وجهه بملامح الاستخفاف والاستهتار وقال:

– لو سلمتمونا قنديلاً لا ينطفئ لدفعتم عن أنفسكم كل هذا العناء والشقاء، ولم تضطروا إلى تسليمنا عشرة شباب أو أن تدفعوننا إلى السيطرة على أرضكم.

ثم قهقه قهقهة شيطانية تقلق الحجر استفزازاً ثم أردف:

– أعطونا القنديل فإنكم تنجون بأرضكم وأولادكم.

لم يكن يعرف **(أبو راتب)** أن خبر فشل وفد قريته في الحصول على القنديل كان قد وصل إلى معرفة القرية الكبيرة عن طريق أحد التجار

الذي كان يبيع بضاعته في قريتهم. ولهذا السبب لم ينتبه ولم يتفطن إلى كثرة التلحين والإشارة إلى القنديل من قبل المتحدث، وما فهمه من كل ما سمعه هو: أنه بما أنكم لا تريدون أن تسلمونا عشرة شباب وليس لديكم قنديلاً لا ينطفئ تُفدون به أرضكم وأرواحكم فاستعدوا لضربات سيوفنا ودكات أسلحتنا.

ولما وصل الوفد إلى دار **(المختار)** كان كبار القرية لا يزالون ينتظرون عودتهم. ولم يحتاجوا إلى كثير شرح من **(أبي راتب)** إذ أن وجهه وانحناء ظهره قد وشى بكل شيء لديه واكتفى بأن قال بنبرة خابية خالية: استعدوا للحرب.

وهم لم يطلبوا المزيد.

تجردت هماتهم للحرب بعد يأسهم من أية فرصة لحل سلمي، وأخذ الكبار يستعدون للحرب بهمة وعنفوان الشباب لا يختلفون كثيراً بتأهبهم للمواجهة عنهم سوى أنهم أكثر دقة ونظرًا وغيرة على كل ثانية تضيع دونما فعل أي جهد حربي يجعلهم أكثر استعداداً للدفاع وأقدر على المواجهة والمنازلة. وهذه أول مرة يشعر بها الكبار رغم ثراء تجربتهم المعنى الحقيقي لعبارة نكون أو لا نكون.

وهم يفهمون نكون بمعنى أن يعيشوا أحراراً وأسياداً على أنفسهم وعلى أرضهم وعلى مستقبلهم. إذ بالنسبة لهم أن يعيشوا تحت الاحتلال يعني الموت والفناء. لأن الحياة حسب قناعاتهم بدون حرية وبدون كرامة ولا سيادة لا تختلف عن الموت مثقال ذرة.

لذلك هم يفضلون الموت في مقارعة الاحتلال ومواجهته على البقاء والتعايش مع الاحتلال حتى لو ألبسوها ثوب المصالحة وديباجة السلام.

ولم ينس الكبار رغبة النساء وتوقهن إلى الدفاع عن القرية، وقد أعدوا لهن دوراً على سطوح المنازل يقذفن أعداءهم بالحجارة وبما تيسر إذا حاولوا دخولها أو إذا استطاعوا دخولها.

ثم شرع الأطفال القادرون على حمل الحجارة في نقلها وجمعها لهن على السطوح. وكانت المنافسة بينهم وتسابقهم في نقل الحجارة بمثابة حزمة ضوء في وسط العتمة أو كوجه ناضر بين وجوه عابسة غطته بسمة.

فكان الكبير أو الشاب كلما مر على طفل ورأى لهفته ولهاثه وهو يؤدي بسعادة رائعة مهامه في نقل الحجارة على السطوح بدون كلل ولا ملل يتأجج فيه العناد والصلابة وتشتعل لديه الحماسة والرغبة في الانتصار على القرية الكبيرة في هذه الحرب المفروضة عليهم.

وأكثر من واحد كان يتعمد النظر إلى الأطفال وهم منهمكون في عملهم إذا شعر بتسرب الفتور إلى قلبه أو بتسلل الإحباط إلى روحه.

حتى أضحى للطفل في حمله الاستعدادات دوران:

دور يمارسه في جمع الحجارة، ودور ينبعث منه دون أن يشعر به.

هكذا كان حال القرية في آخر يومين من الموعد المضروب على مدار الساعة حتى غدت للناظر وكأنها قطعة حديد صلبة متماسكة إذ أينما يولي وجهه يرى السيوف والخناجر وعتادًا جمًا من الحديد قد تعددت أشكاله

وأنواعه، والأهم أنه يشعر أن معنويات أهل القرية حديد وإرادتهم حديد وعزيمتهم حديد وتوقهم للنصر مصنوع من حديد إلى درجة يحتار معها هذا الناظر أي القريتين ستنتصر رغم كبر القرية الكبيرة ووفرة عتادها.

لكن ثمة شيء واحد واضح غاية الوضوح: أنه إذا اندلعت هذه الحرب فلسوف تكون بلا ريب حرب طاحنة ضارية لا هوادة فيها ولا رحمة.

8

الذي يعرف شخصية **(راتب)** ومكوناتها المعنوية والخلقية لن يعتريه شك بأنه سيفعل خلاف ما عمله **(باجس)** إذ لو وصل إلى مسامعه ما تتعرض له قريته من تهديد ووعيد من القرية الكبيرة لما تجاهله وأدار له ظهره واكتفى بالدعاء لهم في ظهر الغيب بأن يرفع الله عنهم الغمة والشدة كما كان يصنع **(باجس)** بل يحزم أشياءه من فوره ويشد رحاله للعودة دونما تردد.

لقد رأى إخوة **(مريم)** أن يخبروا **(باجسًا)** بالحقيقة بما حل بقريته وما يقابلها. ولم يستصوبوا كتمانها عنه متكئين على عقله ورشاده في أن يتعامل مع الخبر برباطة جأش وجلد وبأن الموضوع لا يعدو عن كونه في نطاق الأخبار، والأخبار كما علمتهم الحياة لا بد أن يشوبها الكثير من التضخيم والمبالغة. ولا يعقل، كما قالوا أن تسمح القرى الكبرى الأخرى للقرية الكبيرة أن تفعل بالقرية الصغيرة ما يحلوا لها من تجاوز واعتداء بما لا يتناسب مع حجم خطأ قريته. هذا إذا صح الخبر أساساً كما طمأنوه.

وفعلا آنست روحه من كلامهم طمأنينة وركنت إليه نفسه وخصوصاً بعد أن أعادت عليه **(مريم)** هذا الكلام أكثر من مرّة وتظاهرت أنها تتلمس

إزالة القلق عنه وتصد عنه الهواجس لريثما يستعيد عافيته كاملة حتى ينهض نشيطاً لمواصلة البحث عن القنديل وفي داخلها تضمر استبقاءه إلى أكبر مدى ممكن كي يتسنى لها التعرف عليه عن قرب ولكي تشبع منه قلبها وبالأخص كي تزيد من تعلق قلبه بها ومن تشبث روحه بروحها، حتى تضمن بعد قفوله إلى قريته عودته إلى قريتها طالبًا الزواج منها. لكنها لو درت إلى أي عمق أوغل حبها في قلبه لما غالت في استمالته بطرف خفي للمكوث عندهم في الدار وإلا لكانت قد عولت على هذا الحب في تدبير كل هذه المهام. ومع هذا كان هو أسرع مما توقعت وذهب أبعد مما رسمت إذ بلحظة حب فياضة لم يتمالك أن طلب يدها من إخوتها وقصد بهذا الطلب أن يسد الطريق على أي أحد يفكر في خطبتها إذ علاوة على جمالها وملاحتها فإن ما رآه منها وهي تدافع بشراسة اللبؤة عن نفسها وشرفها من نزوات العابثين وطيشهم قد سلب قلبه وعقله ولم يجعل أمامه خياراً سوى أن يعاجل في طلب يدها لكي يظفر ويسعد بها. وفي نفسه العزم المتين بأن لا يفرط بها البتة مهما كانت الظروف.

واعتزم في داخله بعد أن يحصل على الموافقة من إخوتها أن يعاود البحث عن القنديل كي يرجع به إلى قريته وبعدها يعود من توه مع أهله ليكمل مسيرة الزواج كما سارت عليه أعرافهم.

(مريم) كانت وحيدة العائلة وكانت تتمتع بذكاء وألفة ويحبها من عرفها، وكان إخوتها أشد الناس حباً لها وحرصاً عليها ليس لأنها وحيدتهم

فقط وإنما أيضاً لأنها قوية ورزينة، وتتصرف من صغرها بمسئولية الكبار مما بوأها أعلى المنازل في قلوبهم وجعلها درة العائلة بلا منازع.

فلا عجب أن يرفضوا أن تسكن أختهم بعيدة عنهم، وبما أن **(باجسًا)** يقطن في قرية الشروق وهي قرية تقع في مكان ناء عنهم فإن الراجح أن يرفضوا طلبه الزواج منها. لذلك هم لم يترددوا ولا حتى برهه في الرد عليه. وكان ردهم عليه بموافقتهم جميعاً دون معارضة من أحد. ووقع أثر هذا الرد على قلبيْ الحبيبيْن مدهشاً مربكاً لم يعرفا كيف يعبران به عن مشاعرهما المختلطة. وتركهما ذاهلين للحظات من هول المفاجأة وجسامتها.

لقد أبلغوه بموافقتهم على الزواج منها على شرط أن يسكن معهم، ولديهم من السكن ما يكفي لهما كزوجين. ولا يريدون منه شيئاً سوى البقاء عندهم حتى يصبح واحداً من أفراد القرية.

كانت موافقتهم السريعة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التقصي عن أصله وحسبه تنبع من رغبتهم في أن يردوا على الشهامة بشهامة وعلى النبل بنبل له.

(مريم) تلقت إخوتها بابتسامة رسمتها الفرحة على وجهها. لكن عرضهم في أن يكون مكان إقامتهما معهم قد عطل لديها القدرة على الكلام من فرط ابتهاجها وانتشائها مما حملها على الإسراع إلى الاحتباس في غرفتها.

(باجس) تردد بادئ الأمر. صحيح أنه يريد الزواج منها لكنه كان يخطط في هذه المرحلة أن يرتبط بها فحسب ثم بعد العثور على القنديل يعود للزواج منها. لكن أن يعرض عليه إخوتها الزواج منها الآن والسكن في منزل من منازلهم هذا لم يكن يخطر على باله البتة وكان بالنسبة له ضرب من الخيال أو في عداد المستحيل.

لم يطل تردده عليهم وأراد أن يقطعه على عجل لأنه خاف أن يظهر وكأنه يريد أن يتنكر إلى جميلهم أو يتعالى عليهم. أخبرهم من فوره عن سعادته لموافقتهم وعن امتنانه لهم على سخائهم في تخصيص منزل له ولـــ **(مريم)** يعيشان فيه.

سرهم كثيراً حلاوة جوابه ورفعة ذوقه وازدادوا طمأنينة على مستقبل أختهم وعلى سعادتها معه.

ولم تكن إلا أيام حتى تم الزواج لـــ **(باجس)** واجتماع **(مريم)** مع حبيبها تحت سقف واحد بالقرب من أهلها وعشيرتها.

حلاوة الزواج وشهده لم ينسيا **(باجس)** مهمة البحث عن القنديل. بل القنديل وحظوظ العثور عليه هي التي أدت به إلى قبوله بتعجيل الزواج منها وتقديمه عن موعده الذي رسمه في خلده.

إذ اعتقد أن بعد زواجه من **(مريم)** سوف يتجند إخوتها معه ويُضمون جهودهم إلى جهوده في البحث عن القنديل، وظن هذا لربما قد يعجل في العثور عليه والظفر به.

لذلك كان الزواج سبب تعاظم آماله في الوصول السريع إلى القنديل الذي لا ينطفئ ووصوله إليه قبل **(راتب)** أو **(عامر)** مما يتسنى له إنقاذ قريته القديمة من شر القرية الكبيرة، ومن ثم يتوج بلقب منقذ القرية ومخلصها. علماً أن نية الإنقاذ لم تكن هي سبب خروجه للبحث عن القنديل عندما خرج هو وزميليه (راتب) و**(عامر)** وإنما لحقت بهم، وباتت تستأثر بكل الاهتمام والقلق الذي تفجر لديه.

ليس فقط **(باجس)** وإنما أيضاً زوجته **(مريم)** هي الأخرى لم تتحدث عن رحلة زوجية يقضيانها خارج بلدهم في شهر العسل، واكتفيا بنزهة متواضعة على التلال حول قريتها لما تمنحه هذه التلال للقرية من جمل خلاب فاتن بما تتزين به من أودية مزركشة بألوان كثيرة كعدد ألوان الأزهار والورود تزخر بها القمم والسفوح بحيث لو اقتصرت بنظرك على تلة واحدة لتراءت أمامك مزهرية مصنوعة من فخار تضم داخلها باقة ورود متعددة الأشكال والألوان إلى جانب العيون التي تشكل منابع لكثير من الوديان والجداول التي ترصِّع ثوب المنطقة بخيوط فضية براقة تسكب في النفس متعة التسبيح للخالق سبحانه و تعالى، و تدهش الناظر بالتفكر والتمعن في هذه اللوحة الفنية التي صورتها يد الخالق جلت قدرته.

ورغم أن هاجس القنديل ظل يرافقه إلا أنه لم يحل دون استمتاعه مع عروسه في هذه النزهة، وظل يتنقل معها من تلة إلى تلة يطاردها حينا وتطارده حينا ثم ما يلبثا أن يمسكا بأيدي بعضهما ويسيرا على مهل وتهاد

دون أن تغادر الضحكات وجهيهما والفرحة قلبيهما. ومن غير أن تفوته فرصة لقبلة إلا طبعها على خدها أو وضع يتيح له ضمة حب إلا ضمها.

وبقي هذا حالهما إلى أن بدأ يرتسم بالأفق الغربي خيط يمتد على الجهة كلها يميل لونه نحو الحمرة. وكأنه ينذرهما بدنو الغروب ويذكرهما بساعة العودة قبل أن يسدل الليل ثوبه الأسود، وتطرأ الصعاب والعثرات في طريق عودتهما بما قد يعرض العروسين لسقطة أو كبوة من الأولى أن يتحاشياها.

وقبل أن ينعطفا نحو مسار العودة وهما على قمة تلة أحس بداخله برغبة جامحة بأن يضمها ويقبلها قبل أن يعودا أدراجهما صوب البيت. لكنه أراد أن يطمئن إلى عدم وجود من يشاهدهما ولو حتى من بعيد. أخذ يجول بنظره على سطح التلة التي هو عليها وعلى باقي التلال. وكانت **(مريم)** تقف إلى جانبه بل ملتصقة به تستدفئ بحرارة يده اليمنى التي لفها على منكبيها ويشدها بها إليه، واستشعرت من سخونة جسمه حرارة الرغبة المتفجرة في داخل عروقه.

مالت بدون إرادة إلى الاستسلام إلى رغبته مع ما اعتراها من خوف هجوم الليل عليهما دونما استئذان، فاستعدت لدفء ضمته الحنونة لتهنأ بفيض حبه ولو على رأس التلة بين الأعشاب وسيقان الزهور.

لكنها بدل أن تسعد بضمته وبحرارة حبه أحست به جامداً ويحدق ببصره نحو إحدى التلال. إذ تهيأ له أنه يرى كوخاً أو ما يشبهه.

ولما استبطأته سألته بصوت ندي:

– ما بك يا حبيبي.. أراك تحدق إلى هناك.

وأشارت إلى جهة ما ثم صارت تمسح بحنو شعر رأسه الناعم بيدها وتمررها على وجهه دون أن يصدرفه ذلك عن التحديق حتى قال: انظري إلى هناك.. ماذا ترين؟.

وأشار بسبابته نحو ما توقعه كوخاً.

– لا أرى شيئاً.

ثم أخذت تمعن التحديق نحو نفس المكان إلى أن لاح لها شيء ما، لكنها لم تتيقن من ماهيته.

ثم قالت بصوت متقطع: نعم.. إنني أرى.. شيئاً ما لكنني.. لا أقدر على تحديد هويته.

– ألا تعتقدين أنه كوخ؟

ثم توقف عن التحديق وصار ينظر إليها وهي تحدق.

قالت: لربما... لكنني غير متأكدة من أي شيء.

جوابها وإن كان يفتقر إلى اليقين إلا أنه غذى لديه قناعته أنه كوخ، ولربما الكوخ الذي يبحث عنه، لذلك أينع في صدره العزم للتوجه إلى ذلك المكان ولم يُعِد عليها السؤال واكتفى بما لديه.

ولما أحست بعودة الهدوء إليه مالت بجسمها على الشق الأيمن لصدره وكأنها تستثير فيه حنانه وانتباهه غير أنه تناول يدها وسارا معاً عائدين قبل الغروب.

وفي طريق عودته كان أقل مرحاً و أقل كلاماً إذ انشغل خاطره بالكوخ وبفرص العثور على القنديل قبل زميليه.

وصار يداعبه خياله حول شكل هذا القنديل وكيف سيكون استقبال أهل قريته له حينما يعلمون قدومه بالقنديل الذي سيخلصهم من عدوان القرية الكبيرة. وتخيل نفسه كيف سيجوب شوارع قريته والناس يرمقونه بأبصارهم إعجاباً به وبتضحياته.

ثم بعد أن قطع مسافة كبيرة قربته من بيته.. بيت الزوجية نزل عن خياله دفعة واحدة.. وجد نفسه يسير لوحده مخلفاً وراءه زوجته على بعد عشرة أمتار عنه.

ضرب بكف يده على جبهته وأسمع نفسه كلمات لوم على ما فعل بها. انتظرها ثم عاودا السير معاً نحو البيت.

9

كان (**راتب**) وهو يجوب شوارع المدينة التي بهرته بحوانيتها ومطاعمها وعمارتها، والنظام الذي تتحلى به قد استقطب انتباهه مطعم غلية في الأنقة، وكان عبارة عن قسمين: قسم في داخل بناء بما يشتمل عليه من محتويات فاخرة وإنارة ساحرة، وقسم آخر له امتداد خارج البناء تحت أشجار من النخيل وأشجار أخرى لم يعرف اسمها. إذ لم يكن يراها في قريته، تنتشر الطاولات والكراسي تحت ظلالها، وكل طاولة لها شجرتها تتدلى منها مصابيح منيرة وكأنها تشكل وحدة مستقلة عن غيرها من الطاولات وإن لم تبعد عنها كثيراً.

طاب له أن يجلس على إحدى الطاولات ويمتع بصره بما يشاهده. ولم يعثر إلا على طاولة واحدة خالية من الرواد، فسارع إلى الجلوس عليها. ولم يلبث أن جاءه النادل وطلب منه مشروباً غازياً مع أي شيء للتسلية يأكله معه.

وما هي إلا لحظات حتى جاءت فتاة واستأذنته للجلوس على نفس الطاولة. أجابها بشيء من التلعثم بأنها تستطيع أن تجلس وتشعر بكامل الأريحية والحرية.

ثم انصرف إلى النظر نحو الأماكن المحيطة، ودون أن يشعر إذ بأربعة شبان كان السكر قد خطف عقولهم قد عنَّ لهم أن يناكفوه ليعملوا منه أضحوكة تشبع رغبتهم بالضحك والانبساط. هاجموه صائحين: لماذا تتوقح مع أختنا.. لماذا تعبث بأعراض الناس.

ثم أحاطوا به وكأنهم يريدون أن يوسعوه ضرباً غير أنهم أرادوا أن يروا عن قرب كيف سيمزقه الرعب والجزع منهم. وخصوصاً أنهم يتهموه بشيء غاية في الحساسية.

وحقاً لقد تسلل الفزع إلى قلبه..

نهض من مكانه ثم شرع يقسم أنه لا يعرفها، وأنها هي التي جلست إلى جانبه وأنه أصلاً لم يكلمها البتة مذ جلست.

طبعاً لم يعنهم كلامه ولا إيمانه. ازدادوا صخباً وجنوناً وأرادوا التطاول عليه بأيديهم لولا قيام الفتاة واصطفافها إلى جانبه حيث قالت بصوت عال: أختكم؟ أنا أختكم!؟ أنا لا أعرفكم وكفوا شركم عن هذا الشاب.

وقف أحد السكارى وهتف بصوته الأجش: انظروا يا شباب.. يبدوا أن أختنا سكرانة ولم تعد تعرفنا.

ثم ارتفعت أصواتهم بالضحك الماجن والقهقهات الفاجرة.

وما كانت إلا هنيهات حتى حضرت الشرطة بعد أن استدعاها صاحب المطعم وألقوا القبض على الشلة ثم هدأوا من روع **(راتب)** واعتذروا للفتاة.

ثم وجد **(راتب)** نفسه وجها لوجه أمام الفتاة. كان يرغب أن يكون اللقاء أفضل وفي ظروف أحسن. لكن أحسّ أنَّ عليه أن يواجه التجربة بشجاعة، وبلباقة واستشعر أنه يقف أمام امتحان غير مسبوق: مهمة القنديل من جهة وميول عاطفية أحسها تتململ في قلبه من جهة أخرى.

على كل حال، بقي محدقاً بها والذهول لا يزال يتلبسه لكنه سرعان ما أدرك أن الموقف يوجب عليه المبادرة وأن يخلع عن نفسه الذهول والإرباك.

وفعلاً، تجاسر وطلب منها أن تعذره إذا سبَّب لها أذى أو إزعاجًا. سارعت هي إلى الاعتذار من فعل هؤلاء السكارى وقالت: أنا التي ينبغي أن تعتذر لأنني أنا السبب ولست أنت.. أنت كنت الضحية.

سكتت ثم تقدمت نحوه ومدت يدها تصافحه ثم قالت بهدوء: هذه من بعض الإفرازات السيئة للمدينة.. علينا أن نتحملها.

ثم ارتسمت على محياها بسمة ساحرة وودية تغري بالجلوس للتعارف إلا أن **(راتبًا)** كان قد عقد العزم على الخروج من فوره من المدينة دون أن يلوي على شيء وأعلن "التوبة" وصار الندم ينهشه نهشاً لاجتراره وراء رغبته للدخول إلى المدينة ولم يرد أن يبدو ضعيفاً أمام رغبة ومغامرة جديدة.

وما إن خرج من المدينة حتى أحس بنفس مستوى الهمة والعزيمة التي انطلق بهما في أول مسيرة البحث. إذ أن تجربته مع السكارى _التي أوشكت أن تتطور إلى مشكلة عويصة حتى كادت تودي بكامل مشروعه_

قد غسلت عنه كل غبار العناء والمشقة الذي لحق بهمته وإرادته مثل السيارة التي تخرج نظيفة مصقولة من محطة غسيل السيارات كأنها سيارة جديدة لم تستخدم من قبل.

وصار يجد بالبحث والتقصي ويتنقل من قرية إلى قرية دون أن توهن عزيمته تعاقب الأيام وتتالي الإخفاقات في العثور على القنديل، ودون أن يسمح لنفسه أن تحرفه عن سعيه نحو هدفه، ولم يعد يرى في عين روحه سوى القنديل والكوخ.

وعندما وصل رأس التلة المطلة على إحدى القرى، واعتزم أن ينحدر نحو طرف القرية كي يصل إلى التلة من الجهة الأخرى التي تشرف على باقي جهات القرية وإذ به يقف بغتة ذاهلاً مشدوهاً ومسمراً في مكانه كمن سحره شيء ثم أخذ يفرك عينيه، لا يصدق ما يرى، وأخذ يمعن النظر ليتأكد أكثر ويطمئن. ثم من هول المفاجأة لم يتمالك أن قعد مكانه دون أن يشيح بوجهه عما يشاهد. ليس عثوره على الكوخ هو الذي سبب له المفاجأة الصاعقة، فهو أصلاً يكد ويجد منذ خمسة وعشرين يوماً في التنقيب عنه. وإنما طريقة العثور عليه هي التي أذهلته وبغتته، فكان يتصور أن يلمحه أولاً من بعيد ثم يجد في الاقتراب إليه حتى يتأكد منه. لكن أن يراه دفعة واحدة وكأنه هبط أمامه من السماء دون أن يقنصه من بعيد بنظره ويتدرج إليه بلهفة ورغبة من وجد حبيبته بعد ضياع أنه ألمس الكهربائي بعينه.

على كل حال بقي واضعاً كفه فوق عينيه يحد النظر نحو الكوخ يستشرفه وهو شبه معطل في حواسه وتفكيره كالمصعوق لا يوقظه منها إلا رشة ماء باردة على وجهه تغسل عنه الغَشْية التي غطته.

لم يحتج **(راتب)** إلى هذه الرشة واكتفى بتحريك رأسه يمنة ويسرة مع تمرير نظره مرة بعد أخرى على الكوخ وما يحيط به إلى أن شعر بانتعاش حواسه وقدرته على التمييز. ثم نهض واعتزم دخوله تمشياً مع ما قاله لهم **(الشيخ)** الهرم الذي كان يمتطي حماره عند السنديانة.

أخذت تتراءى أمامه كلمات **(الشيخ)** الهرم الذي كان يشع حكمة: "القنديل يُؤتى ولا يأتي.. أنتم سيروا إليه".

ثم أخذ يسير نحو مدخل الكوخ ببطء وبصورة بلهاء. وجده من جهة القبلة. أخذت دقات قلبه تزداد وأحس أنه بدأ يضطرب ويصاب بالدوران إذ أنه داخل على مجهول لا يعلم ما سيواجهه، وأخذ يمسك جانبيْ جبينه بأصابع يده يتلمس تهدئته وعودة التوازن إليه. أنه أمام لغز مربك معقد.. أنه أمام مغامرة صعبة حقيقية.

صارت تتوارد إلى ذهنه أسئلة خاطفة تتدفق على رأسه كالنهر المندفع الجامح: "هل سيصدق هنا **(الشيخ)**؟"، "هل حقا سأنال من هنا القنديل؟"، "أم أن **(الشيخ)** كان يتلاعب بمشاعرنا ويسخر بعقولنا؟".

أسئلة كادت تدوخه وتقعده. لكنه تجلد وتصبر وحشَّد ما بداخله من مقومات التحدي وطاقات المواجهة.

ثم برباطة جأش وعناد متقجر دلف بصورة اقتحامية كي يجتاز العتبة سريعاً، فوجده خالياً من أي شيء سوى من حصير مفروش على كامل أرضيته ولاحظ في ركنه فرشة يرقد عليها شيء ما ورجح أنه شخص نائم.

تقدم ببطء وعيونه لا تغادر الركن حيث المرقد ولما كان على مسافة قريبة منها ألفى عليها شيخاً هرماً هاجعاً على ظهره ويعلوه شرشف أبيض يغطيه من قدميه حتى رقبته، ورأسه غاطس في وسط مخدة قد ارتفع جانباها كهضبتيْن يغطيانه حتى أذنيه، ويعلو وجه **(الشيخ)** لحية كثة بيضاء وهاجة كأنما دهنت بزيت.

لم يستطع **(راتب)** أن يتعرف على **(الشيخ)** من مكانه رغم قربه. تقدم أكثر بتردد نحوه والوجل يغمره ثم لمح على الجدار فوق رأس **(الشيخ)** كتابة بخط عريض باللون الأسود لكنها بدت له أنها تخوض معركة ضارية مع الزمن ومع ظلم الناس لأجل بقائها، ورغم ما بدا عليها من انطماس ووهن إلا أنها ظلت صامدة بعناد عجيب تنطق حكمة ونهج حياة: "بالعمل والسهر يحصل الظفر".

جلس **(راتب)** عند رأس **(الشيخ)** قعدة الجالس للصلاة ثم سلم عليه وانحنى بظهره نحوه قليلاً. ولما رد عليه **(الشيخ)** بصوت أقرب للوهن مصحوب بأنَّة مريض. فوجئ مرّة أخرى بل بُهِت ودهش وكأن رد **(الشيخ)** قد أزاح غشاوة كانت قد حجبته عن **(الشيخ)**. إذ انكشف أن

الهاجع إلى جانبه هو نفس (**الشيخ**) الذي قابله هو وأصحابه تحت السنديانة قبل زهاء الشهر.

اختلطت بشكل فوضوي مشاعر (**راتب**) نحوه، فمن جهة قد سُر لرؤيته إذ أنه يعرفه ويعرف حكمته، وفي داخله كان يُكن له التقدير الذي يستحقه بخلاف ما أظهره له أصحابه حينما حمل هو كلام (**الشيخ**) وقتذاك على متن الجد والأهمية وود حينذاك لو تمكن من الحديث المطول معه عن القنديل الذي لا ينطفئ.

ومن جهة أخرى أسرعت إليه مشاعر نكسة وانسحاب إذ لو أن (**الشيخ**) يستطيع أو يريد أن يفيده عن القنديل أكثر مما أفاده تحت السنديانة لما تقاعس وقتذاك عن مساعدته وبخل بما لديه. وما عساه قد تغير حتى يجعله أكثر إفادة.

على كل حال، لقد وجد بعد طول غياب لم يعتده عن أهله ومعارفه من يؤنس غربته ويسري عنه بحكمته بعضاً من همومه وأحزانه.

(**الشيخ**) لم يسارع للجلوس لاستقباله ولم يسارع حتى إلى مدِّ يده لمصافحته إذ كان المرض يلقى عليه ثقله. استعاض (**راتب**) عن ذلك بأن مسح بيده اليمنى على رأسه وجبينه فوجده يضج حرارة ويندى عرقاً فأوجس خيفة بأن (**الشيخ**) لربما في مرض الموت وأنه في لحظاته الأخيرة. لكنه واسى نفسه بأن لو كان (**الشيخ**) بمرض الموت لما تُرك وحيداً على فراش الموت. وحالما شاهد (**الشيخ**) ملامح الجزع والرهبة قد كست وجه (**راتب**) قال مطمئناً: لا عليك يا بني..

سكت هنيهة ثم استطرد بصوت متعب: أنها حمَّى تتفقدني مرّة كل سنة بعد أن جاوزت سن لسبعين.

صمت وكأنه يأخذ نفساً للمتابعة، ومن أسارير وجهه بدا كمن اغتبط لمجيء **(راتب)**. وكأنه على موعد معه.

ثم أردف: وتستمر معي ثلاثة أيام.. وأحب في هذه الفترة أن احتبس في كوخي هذا الذي بنيته لهذه الغاية محتجباً بمرضي عن الناس.

تبددت الغمة عن روح **(راتب)** بعد أن اطمأن على حياة **(الشيخ)** ونمت في نفسه الآمال حول استدراجه للحديث عن رحلته المضنية من أجل القنديل الذي قد يقوده بالنهاية للحديث عن الكوخ الذي تكلم عنه آنذاك تحت السنديانة.

علت وجه **(راتب)** ابتسامة وقال: يا عم أنا سعيد برؤيتك و...

– انتظر.. انتظر

قاطعه **(الشيخ)** وحاول بكل قواه أن يسحب نفسه إلى أعلى كي يسند ظهره على المخدة.

سارع **(راتب)** إلى نجدته ومساعدته للجلوس، ولم يعارض **(الشيخ)** مبادرته ولم ير بها إحراجاً.

ثم بعد الجلوس أخذ يمسح العرق عن جبينه ووجهه بخرقة كانت إلى جانبه لهذا الغرض ثم صار يضرب بيده على ظهر يد **(راتب)**، و بدا أكثر كمن يريد أن ينشئ جواً مهيباً كمدخل لأمور جدية ينوي أن يتكلم بها.

أحس (**راتب**) بإيحاءات (**الشيخ**)، فعدل من جلسته هو الآخر واستعد للإصغاء.

ثم ما لبث (**الشيخ**) أن شرع بالحديث دونما مقدمات:

لما رأيت غضبتكم تحت السنديانة على مر واقعكم عرفت أنها باتت مسألة وقت حتى تظفروا بالقنديل.

ما إن سمع (**راتب**) ذكر القنديل وأن (**الشيخ**) ما فتئ يتذكر قصتهم حتى انفرجت أسارير روحه وصار قلبه يرفرف فرحاً في صدره.

تابع (**الشيخ**): والغضبة يا بني إذا كانت واعية لابد أن تقود إلى الحركة.

صمت، وأطال الصمت دون أن يجسر (**راتب**) على قول شيء. ثم أردف (**الشيخ**): والحركة يا بني تعني الجد والاجتهاد والمثابرة لنيل هدف ما..

ثم سكت قسراً وكأن مخزون نَفَسه قارب على النفاد، وصار يسعل بشكل غير عادي. وكان (**راتب**) يشعر بروحه تهتز وترجف مع كل سعلة يسعلها (**الشيخ**) إذ يريد منه أن يستكمل حديثه طمعاً بأن ينطق بشيء يرشده إلى الطريق الموصلة للكوخ.

وبعد أن هدأت عاصفة السعال وسكت ضجيجها وإذ به بياغت (**راتبًا**) بمفاجأة كادت تخلع قلبه وتشُل عقله وخصوصاً بعد أن تتالت عليه المفاجآت هذا اليوم، وكل مفاجأة كانت أكبر من سابقتها. لكن مثل هذه المفاجأة من (**الشيخ**) لم يكن يتوقعها البتة.

مد **(الشيخ)** يده بتثاقل نحو طرف المخدة من جهة ركن الكوخ وتناول علبة بحجم متوسط، ووضعها على حجره ثم توجه ببصره نحو **(راتب)**، والعلبة ما تزال في حجره فقال: هذا قنديلك يا بني.. مد يدك وتناوله.

أخذت **(راتب)** الدهشة وانطبعت على محياه كل معالم الصعق، وصارت تدور برأسه خواطر وتساؤلات دون أن تلقى أجوبة: أمعقول ما أسمع؟ أحقاً هذا قنديل؟ ومنذ متى وعلبة مثلها تسع قنديلاً؟ أيزال **(الشيخ)** يسخر منا؟ أم حقاً وجدت قنديلي؟.

ثم بلا إرادة انزلقت من مآقيه دمعات لم يجد لها تفسيراً ولا كابحاً دون أن يحرف ناظريه عن العلبة. علبة القنديل على رأي **(الشيخ)**!

وظل الشك يأكله، فهو أصلاً مذ دخل الكوخ ولم ير فيه أي قنديل لا على الحائط ولا معلق بالسقف ولا على الأرض يئس من إمكانية العثور عليه فيه البتة، وبقي أمله معلقاً بإشارة تأتيه من الكوخ لربما تهديه إلى القنديل، فلا عجب أن يكون وقع هذه المفاجأة على قلبه أعمق غوراً.

مسح دموعه بيديه ثم حدج **(الشيخ)** بنظرة مستغربة مستفهمة وحدّث نفسه قائلاً: "إذا كان هذا قنديلي، جدلاً، فلماذا لم يعطني إياه إذن تحت السنديانة لما حدق بي وأطال التحديق؟ ولماذا جعلني أبذل كل هذا الجهد والتعب وأعرق وأكد وأتحمل مشقات الطريق ووعورته، وكان بمقدوره وقتها أن يدفع عني كل هذا العناء".

أحس **(الشيخ)** بما يعتمل في خلده وبما يدور في رأسه. انزلق إلى تحت الشرشف مقدار شبرين ثم أشار بإصبعه نحو الكتابة خلفه وقال: اقرأ يا بني.

وكانت الكلمات هي التي سبق وقرأها من فور دخوله الكوخ: "بالعمل والسهر يحصل الظفر".

تسمرت عينا **(راتب)** عليها وبدا وكأنه يتشرب كلماتها أو يحاول أن يفقه دلالاتها. ثم صار يهز رأسه وملامح الجد بادية عليه، وأخذ يرمق بنظره علبة القنديل التي في حجر **(الشيخ)** وينتظره بنفاد صبر أن يناوله إياه.

ابتسم **(الشيخ)** ابتسامة خفيفة ثم وجه كلامه له قائلاً:

يا بني: قلة الحيلة والكسل ومجافاة العمل والمبادرة هي أسباب تخلف الكثير الكثير من خلق الله.

أحس **(الشيخ)** أنه لربما خدش كرامة الفتى لكنه لم يتراجع ولم يعتذر لأنه يعرف أن الدواء مر فليذق مرارة النجاح !!!.

ثم أردف بعناد: عندنا في القرية يوجد مثل متداول على ألْسنة الصغار والكبار قد نحتته في أرواحنا لجج الحياة وخطوبها قد ورثه جيل عن جيل وهو: "بدك قنديلك تحرك ومد إيدك".

ابتسم **(راتب)** وشعر الآن أنه أدرك تمام الإدراك حكمة **(الشيخ)**. على الرغم من أنه لم يهضم فكرة قنديل في علبة متوسطة إلى الآن.

ثم مدَّ يده وتناول العلبة التي أحس بها أنها أخف بكثير من أن تحتوي على قنديل. خفق قلبه وعبس وجهه للوهلة الأولى أنه لم يعد يفهم شيئاً، وأنه الآن في ذروة مخاض لا يدري ماذا سيتولد عنه، وصار الشك يساوره من جديد حول **(الشيخ)** وحول نواياه لكنه سرعان ما طرده من رأسه ومن خاطره إذ اعتقد أن شيخاً يفيض حكمة ومهابة وجدية منذ أول لقاء به لا يُعقل أن يتلاعب بمشاعره وأعصابه إلى هذه الدرجة الفجة.

انتبه **(الشيخ)** إلى تغير سحنته وتلبكه في تعامله مع العلبة، وأدرك أن **(راتبًا)** قد استخفها واستغربها إذ ظن أن يجد فيها القنديل. والقنديل يشعر حامله بوزنه، وهذا ما لم يستشعره **(راتب)**.

أشرق وجه **(الشيخ)** باشراقة عذْبة غسلت عنه ملامح الحمَّى، ونظر إلى **(راتب)** نظرة الحكيم المجرب ثم قال:

أيْ بني: إذا بدأت فاحرص أن تستمر. افتح العلبة بلا تردد.

وفعلاً لم يتردد بالاستجابة رغم ما ظل ينتابه من الاستهجان والتلبك إذ أراد أن يجاريه حتى النهاية.

أخذ يفتح العلبة بروية وفضول متلف للأعصاب. وجد فيها علبة صغيرة بحجم كف اليد، فتعاظم فضوله واستهجانه إلى حد انشداد أوتار أعصابه إلى نهايتها.

نظر إلى **(الشيخ)** شزراً ثم تناولها ووضع العلبة الكبيرة على الحصير. ثم صار ينظر إلى العلبة الصغيرة تارة وإلى **(الشيخ)** تارة

أخرى والاستغراب والريبة يغطيان وجهه، والحنق المكبوت كاد يفتك بقلبه. وقال في نفسه غاضباً ساخراً: "يبدو أن هذا يوم العلب".

لم يرد **(الشيخ)** أن يتركه نهشاً للشكوى والتوتر، فسارع إلى القول:

– افتحها هي الأخرى يا بني.

وأتبعها ببسمة وادعة ودودة.

فتحها **(راتب)** وكان فتحها أسهل من الأولى وأسرع.

وجد فيها ورقة مطوية. تناولها ثم رمى **(الشيخ)** بنظرة تنطق بلاهة. أومأ له **(الشيخ)** أن يفتحها. فضها ورعشة خفيفة بدت على يده. وجد فيها كتابة بأحرف كبيرة. قرأها بسره بنهم وكأنه يلتهم أكلة لذيذة.

ولما فرغ من قراءتها ارتسمت على وجهه ابتسامة ارتياح هادئة تنم عن بداية فرحة تسللت إلى قلبه لتحل محل الاضطراب الذي قاساه والألم الذي عاناه.

ثم نظر إلى **(الشيخ)** وقال ببهجة انتشاء: كنت أظن يا عم بادئ الأمر أن أجد في العلبة كما فهمت من كلامك قنديلي، ولم يخطر على بالي البتة أن أجد فيها هذا المفتاح.

ثم صمت صمتة مسحت عن وجهه قسمات الفرحة التي غشيته للتو واستحوذت على قلبه إذ أنه قد مسه طائف من خاطر جعله يستطيل المشوار، ويفهم أن النور الذي لا ينطفئ لا يأتي بلا كد وبلا تعب ولا بأي حال.

هز (**الشيخ**) رأسه اهتزاز من حقق انتصار أو أدى رسالة مقدسة دون أن تغادر الابتسامة وجهه إلا لما عاوده السعال من جديد، وكأن اهتزاز رأسه قد حرك في داخله الهاجع منه.

وحالما سكت عن (**الشيخ**) السعال. اغتنمها (**راتب**) فرصة لكي يسلل بعض كلمات فقال:

– لكن.. لكن يا عم.

– أي بني..

قاطعه (**الشيخ**) والجد يكسو محياه، ولأول مرة تنبه (**راتب**) للأخاديد التي حفرها الزمن وعمقتها التجربة على وجهه.

تابع (**الشيخ**):

- هل حسبت أن النور الذي لا ينطفئ يُمنح أو يشترى.

ثم صمت صمتة مهيبة جليلة وأخذ يغرز عينيه في عيْني (**راتب**) وكأنه يريد أن يغرس فيه غرساً من نفس شجرته العتيقة العالية الوارفة ثم استطرد:

– النور يُصنع ويُبنى ولا يُمنح ولا يُهدى.

ثم ببطء المريض ربت على كتف (**راتب**) وقال مستكملاً:

– هذا هو يا بني قانون الحياة الكريمة وطريقة الصعود الرشيدة.

ثم بنفس البطء سحب يده من على كتفه وأخذ يندس بصعوبة وبأنّاة المريض تحت لحافه دون أن ينطق بشيء ثم بهدوء ناعم أغمض جفنيه من غير أن يكلف نفسه حتى توديع (**راتب**).

لم يستغرب **(راتب)** صنيعه ولا نومه السريع، فما رآه اليوم من المفاجآت والغرائب وأيضاً من الحكمة والفضيلة قد عزل عنه أي نزعة من استغراب أو استهجان. فالحياة تطفح أسراراً.

سبَّل بيده عيون **(الشيخ)** وانحنى على رأسه وقبّله بإجلال وإكبار كمن يقبل يد وليٍّ من أولياء الله.

ثم نهض وهو مفعم بشعور من أدرك تمام الإدراك حقيقة حكمة **(الشيخ)** وقال في سره: "هذا هو النور الحقيقي الذي ينبغي له أن لا ينطفئ".

خرج من الكوخ القهقرى وهو ينظر إلى **(الشيخ)** بإجلال وخشوع، وهو يقبض بكلتا يديه على الورقة الغالية بحرص من يمسك بعصفور يخشى انفلاته من بين يديه.

ثم جلس على نفس الحجر الذي جلس عليه قبل دخوله للكوخ، وندت عنه تنهيدة هي مزيج من فرح وتعب وارتياح وقلق أعقبت هدوءاً نفسياً وطمأنينة حافزة. ثم صار يهضم على مهل كل الذي جرى معه اليوم وراق له أن يقرأ المفتاح من جديد ليتسنى له فتح باب صنع القنديل الذي لا ينطفئ الذي لطالما جد وثابر من أجل العثور عليه.

كان هذا المفتاح عبارة عن وصفة لصناعة وتركيب القنديل. وفهم أنه لأجل صنعه يتوجب عليه الذهاب إلى مدينة تتوافر فيها مكونات القنديل. فقصد أقرب مدينة عليه فوصلها ليلاً.

في الصباح انطلق إلى المواقع التي يتطلب صنع القنديل دخولها ونفسه مشبعة بشعور المقبل على تدشين عصر جديد له ولأهل قريته.

صار القنديل يُبتنى بين يديه. وكان كلما خرج من موقع ازداد بناء القنديل تكاملاً واقترب أكثر فأكثر إلى معالمه الأخيرة، فيزداد **(راتب)** لهفة وحماسة في إتمام بنائه في أسرع وقت كي يكون أول من ينظر إلى قنديلٍ لا ينطفئ من صنع يديه.

ولما بلغ القنديل تمامه كان من أجمل ما تكون القناديل.

ثم، مندفعاً بابتهاجه وضعه أمامه وابتعد عنه قرابة المترين وأخذ ينظر إليه بنظرات الرضى والإعجاب، فوجده حقاً من أجمل ما رأت عيناه مذ ولدته أمه، فخر ساجدا لله تعالى أن تحقق الحلم و أنجز القنديل. ثم اندفع نحوه والفرح والسرور يغمران قلبه غمراً. ثم حضنه وأخذ يقبله كمن يقبل حبيباً غائباً حضر. ومن دون أن يحاول كبحها أو حجزها سالت دموعه منسكبة على القنديل.. القنديل الذي لا ينطفئ.. القنديل الذي صنعه بيديه.

ثم أخذ يحث خطاه نحو قريته دون أن يعتريه تعب أو كلل إذ أن الفرحة التي تعتمل بصدره لا تسعها المحيطات ولا قلوب البشر، وكانت كمن أنبتت له جناحين يطيران به عالياً فوق وعثاء السفر وهم الطريق. يتملكه شعور من يحمل بين يديه أغلى كنز في الوجود، وأنه يستأثر به دون غيره وخصوصاً أنه من نتاج يديه وجده واجتهاده. ثم حدث نفسه قائلاً: "الحمد لله، أخيراً بعد كل هذا الكد والعمل نلت قنديلي الذي لا ينطفئ ولم يذهب جهدي وعرقي وسعيي أدراج الرياح".

سكت هنيهة تتهد خلالها تنهيدة آتية من أعماق الماضي وخلجات الحاضر. ثم استطرد في سره: "لو أن أبي وجدي خلعوا عن أنفسهم لباس الكسل والاستسلام والقعود ولبسوا لباس السعي الدؤوب والهمة العالية لما تخلفنا وبقينا في آخر القافلة نتجرع الإهانة والاستتفاه من نفس الكأس القديمة التي كنا نشرب منها مجبرين على يد من جدَّ قبلنا وسعى وسبق، والتي شربت منها أجيال قريتي دون أن يحطمها أحد بنفس المعول الموجود في كل بلد وفي كل إنسان لو فقط تم استخدامه".

وفجأة وبدون مقدمات انتقل به الخاطر إلى **(عامر)** و**(باجس)** فأيقظ في ذاكرته كل محتويات جميلة عنهما. فطاب له المكوث مع هذه المحتويات التي سرَّت عنه وخففت بعضاً من نصب البحث وعنائه كما تصنع نسمة هواء باردة مع حبات العرق على جبين العامل المجد في يوم شديد الحر شديد العناء.

توقف بغتة وكأنه عمود ثم غرز عينيه بالأرض، وبدا كأنه يحدق بـــ **(عامر)** أمامه ثم تمنى بصوت أقرب إلى الهمس: "يا ليتك يا **(عامر)** تسبقني إلى القرية وقنديلك معك.. يا ليت.. يا ليت".

– من أنت أعطني هويتك.

صاح به شرطي كان قد اشتبه به وبوقوفه المستغرب دون حراك كأنه ميت لكنه واقف وبيده قنديل ثمين.

انتبه **(راتب)** مجفلاً على صوته كما ينتبه النائم المستغرق عندما يوقظه موقظ بخشونة بلهاء تستفز الحجر.

كاد **(راتب)** أن يرد عليه بعصبية لولا أن رأى بزته الرسمية فقال متلعثماً: ماذا.. ماذا تريد؟.

رد عليه الشرطي سائلاً وقد زاده تلعثم **(راتب)** ريبة وتجهماً: ما هذا الذي بيدك.. ولمن هو؟

وبعد أن بيّن له أنه هو صاحب القنديل و أنه صنعه بيديه، سأله من هو ومن أين أتى، إذ من لهجته تأكد أنه ليس من أهل هذه المدينة. ولما أجابه أنه من قرية الشروق تغير لون وجه الشرطي وتحرك جسمه كمن يعبر عن فرح مَن وجد شيئاً فقده وعن حزن من فقد شيئاً يملكه.

تناقض المشاعر التي خالجت الشرطي أفقدت **(راتباً)** القدرة على تحديد حالته أهو فرحان لمعرفته أنه من قرية الشروق أم حزين بسبب ذلك.

– يجب أن ترافقني إلى مركز الشرطة.

– ولم؟ فأنا على عجلة من أمري ويجب أن أعود لقريتي في الحال.

– حالما تصل إلى المركز فسوف تعرف.

وارتسمت هذه المرة على وجهه ملامح حزن واضحة، وقاده نحو المركز دون أن ينبس معه بكلمة واحدة ودون أن يحاول **(راتب)** استدراجه للإفصاح عن سبب اقتياده للمركز.

كاد التفكير والتقصي عن سبب ذلك أن يعطل قدرته على المشيْ. لقد أرهقته الخواطر وأضناه الخوف والقلق على القنديل، وأكثر ما أنهكه وأتلف أعصابه ظنه أن الشرطي يتحايل ليستولي على قنديله الذي بناه وصنعه بكد يمينه وقوة تصميمه لما ينطوي عليه من جمال ساحر ووهج

آسر. وكان يرتاب من كل حركة غريبة أو نظرة مريبة تصدر عن الشرطي دون أن تغادر نظراته المتحفزة مسار سيره لئلا يسحبه إلى مكان منعزل يستفرد به لكي يسيطر على القنديل.

كل هذه الهواجس والمخاوف ما لبثت أن تبددت إلى حد كبير من فور دخولهما إلى مركز الشرطة. إذ اعتقد أنه لو أراد حقاً الاستيلاء على القنديل لما أتى به إلى المركز وسط الناس وعلى مرأى من أعينهم. ومع هذا بقي السؤال الحقيقي أو اللغز المؤرق والذي يتخبط به رأسه: "لماذا أتى بي إلى مركز الشرطة". دون جواب أو تفسير إلى أن أدخله إلى غرفة الضابط المسئول بالمركز. وسمعه يقول للضابط: "إن هذا الشاب من قرية الشروق وبإمكانك الاستعانة به".

صافحه الضابط بطريقة عادية ودون أن يستقطب القنديل _الذي يمسكه **(راتب)** كمن يمسك طفلاً صغيراً يخشى عليه من الوقوع_ أي انتباه.

ثم قاده للطرف الآخر من المركز من غير أن يتبادل معه أيما حديث. وتحولت الحيرة داخل **(راتب)** إلى نار تضطرم. تحرق الأعصاب وخصوصاً أنه كان يمر به من دهاليز ضيقة تبدو أحياناً أنها أنفاق تحت الأرض تقود إلى مجهول إذ كانت حيطانها عارية من أية إشارات تفصح عن طبيعة المكان أو ماهيته، فالجو كان مرعباً والوجوه كانت كالحة معتمة شعر عندها **(راتب)** أن أنفاسه هي التي تمر بدهاليز ضيقة وملتوية كخروج الروح من الجسد لكي تصله حتى تمده بأسباب الحياة.

وعندما وصل به الضابط إلى غرفة كبيرة، ولاحظ أنها محكمة الإغلاق، ورأى اليافطة المكتوبة على صفحة بابها أحس أن النار التي بداخله توشك أن تلتهم فيه كل شيء، وأن أنفاسه تتعثر وتتقطع، وتمنى بأسى ومرارة لو أنه لم يصل إلى هذا اليوم، والى هذه اللحظة بالذات. إذ كان مكتوب على الباب بالخط الأسود العريض: "ثلاجة الموتى".

لم يفهم لماذا أتى به الضابط إلى هنا بالذات وهو بالذات، ولم يستوعب ما علاقته بثلاجة الموتى إذ أنه من قرية بعيدة عن هذه المدينة، وقلما يدخلها إنسان من قريته وهو حي فكيف يكون بها وهو ميت.

الجنون في هذه اللحظة كان لربما أرحم له من حالة التوتر والضيق والهلع الذي عصف به ولولا أن بادره الضابط بالكلام لجن فعلاً.

التفت نحوه الضابط وتظاهر بالجد المخلوط بالحزن ثم أخبره أنه من أسبوع توجد في الثلاجة جثة لأحد سكان قرية الشروق "وكنا ننتظر أن يأتي أحد من طرفكم كي يستلمها".

لم يكترث كثيراً الضابط بما اعترى **(راتب)** من فزع ودهشة وقلق لاح على وجهه المتوتر أصلاً، فوظيفته مع الجثث قد سلبت منه الإحساس بأحزان ومآسي الآخرين. فلربما قد ألِفها وصار يتعامل معها كما يتعامل بالروزنامة. وربما قلبه مات. إلى درجة أنه عندما ماتت أمه تعامل معها كباقي الجثث وليست جثة أمه، بلا حزن أو أسى أو دموع في المآقي.

ظل **(راتب)** صامتاً لا يعلق، ولا يستوضح وخال للوهلة الأولى أن في الأمر لبسًا إذ أن شيوخ القرية دائماً يحبون أن يموتوا في القرية حيث وُلدوا على أن يأتوا إلى المدينة للعلاج.

هجس في نفسه ربما فعلها أحد الكهول. وصارت تتراءى أمامه صور أكبر الناس سناً في قريته من العجائز. ولم يجد صعوبة في استحضار صورهم إذ ليسوا بكثيرين. ثم ما لبث أن سخر من هذا الهاجس وأيقن أن في الأمر لبسًا وخطأ ما.

فتح الضابط الباب، ودخل إلى الغرفة مخترقاً جو الرهبة والصمت المرعب الذي يملؤها. ودلف **(راتب)** وراءه وهو غير مصدق بما يحدث معه، وكاد يسقط من الدوران الذي حاق برأسه الذي سببه له رائحة الموت المنتشرة بالمكان.

ولما وصلا الثلاجة، وضع **(راتب)** القنديل على الأرض إلى جانبه. ثم تسمر في مكانه قبالة الضابط وظل ينظر إليه متوتراً وهو يعالج فتح جارور الثلاجة، وحالما انتهى من فتحه وسحبه إلى الخارج رأى جثة مسجاة بقطعة بيضاء غطت كامل الجسد.

دنا **(راتب)** بتثاقل واضطراب.. يدفع نفسه دفعاً، ثم جحظ بعينيه نحو رأس الميت ليتأكد من التباس الأمر.

ببطءٍ أزاح الضابط الغطاء عن رأس الميت ثم كما الروتين ألقى نظرة سريعة على **(راتب)** ليعلم منه أن كان قد تأكد وتعرف على هوية الميت فألقاه جامداً شاحباً لا يطرف له جفن يستمسك بكلتا يديه حافة الجارور

وكان يشد عليه بكل قوته كيلا يقع وبدا للضابط كمن يقاوم عن نفسه سكرات الموت أو بدا كمن تعلق في طائرة تحلق في أعالي السماء قد خارت قواه ويوشك أن يسقط إلى موته فهو يشد قبضته عليها بما تبقى له من قوة.

ارتبك الضابط لمنظره، ولم يدر ما يفعل مع هذا الشاب الغض الوادع الذي لربما كما ظن وقعت عليه مصيبة أكبر منه ومن قدرته على احتمالها. ومما زاده إرتباكاً وحيرة وقلقاً تواصل **(راتب)** في صمته وكبته لمشاعره رغم فداحة ما حل به، وتيقن أن الميت عزيز عليه ولربما أخاه.

هذه أول مرة يشعر بها الضابط منذ سنين طويلة خلت بأن مشاعره قد عادت إليه وبدأت تتحرك نحو أحزان الآخرين.

حمله عطفه الإنساني أن يترفق مع **(راتب)** ولا يتعامل معه برسميات الوظيفة كما كان يتعامل مع الآخرين. وضع يده على كتف **(راتب)** كي يسأله عن صلته بالميت. وجد جسمه حاراً كالفرن. سحبها بإجفال مفزوع كمن لدغته أفعى. وتيقن أن **(راتبًا)** لم يحس أساساً بيده. لذا تركه يأخذ مداه يتألم حزنه ويتوجع مصيبته لكنه خاف عليه من الإغماء والانهيار إذ أنه هوى على صدر الميت ورأسه يقبلهما كالمجنون ويحسس يديه على وجهه كمن يريد أن يدخل إلى داخل جسده كيلا يفارقه ولا يغادره.

وفجأة خيل إليه أن **(راتب)** يتمتم بشيء ما فأصاخ إليه السمع وجند نحوه كامل الانتباه كي يطمئن أنه بدأ ينفس عن مكبوتات مشاعره

وأحزانه لأن تجربته مع الجثث قد علمته أن البكاء والدموع والكلام يسلي عن النفس ويخفف نتفاً من آلامها وأوجاعها.

لكنه يكاد لا يفهم شيئاً أو يركب جملة مفيدة.

ثم أحد من سمعه عله يلتقط كلمات مفهومة إذ تأكد أنه يتلفظ بكلمات ما لاسيما حسبما رجح اسم عزيز عليه.

ثم أخيراً استطاع أن يلتقط ما يتفوه به.. سمعه يتمتم: **(عامر)**.. **(عامر)**.

وفي الحقيقة أنه سمع جزءاً يسيراً مما كان يتمتم به حيث كان يغمغم: **(عامر)**.. أحقاً أنت **(عامر)**.. أمعقول أنت **(عامر)**.

وكان يبحث وينقب بيديه على علامات يعرفه بها وهي خال واحدة تحت أذنه اليمنى وواحدة على صفحة عنقه من جهة اليسار وأخرى في قفية رأسه ليتأكد إن كان الذي بين يديه هو **(عامر)** حبيبه وصديقه "الروح بالروح" وخطيب أخته. إذ لعله شبيهاً به. في قرارة نفسه متيقن أنه **(عامر)** بلحمه وشحمه لكن قسوة اللحظة ومرارتها شوشت عليه يقينه كمن يضرب كفه بالماء الذي أمامه ليتأكد من كونه ماء.

في هذه اللحظة القاسية حضرته مقولة ذلك **(الشيخ)** الذي حفزه واستنهضه على الجد في الطلب والسعي والاجتهاد: "هذا هو يا بني قانون الحياة الكريمة والطريقة الرشيدة".

ومن متطلبات هذه الحياة كما فهمها الآن على جلده ملأى بالتضحيات والأثمان الباهظة التي قد يدفعها الإنسان على هامش سعيه وسيره وكده دون أن يصرفه ذلك عن المواصلة والمثابرة.

ثم بعد سهوم طويل، والضابط ما فتئ ينظر إليه ذاهلاً خائفاً، ضم وجه **(عامر)** بين كفيه وأحنى رأسه على جبينه وقبله وقال: "وأنت يا أعز الناس علي أنت ثمن سعيي الباهظ.. وأي ثمن".

ثم وضع جبينه على جبينه وبكى بصمت، وصرخ بصمت، وتألم بصمت. صمت القانتين الخاشعين.

وكان أكثر شيء يصدع روحه ويشرخ قلبه كيف يواجه أهل **(عامر)** بهذه المصيبة بل الكارثة التي حلت بهم وخاصة بأخته **(نجوى)** التي تحبه موت وتهواه بجنون.

لكن الأنكى والأمر أن كل ما يعرفه عن سبب موته هو فقط ما أبلغه به الضابط المسئول في مركز الشرطة. حينها لم يصدق ما سمعه ولم يستوعبه لأن ما قاله له يصطدم مع صورة **(عامر)** التي في رأسه وفي وجدانه فهو ذلك الشاب ابن القرية البسيط الطيب المفعم بالحب والحنان، فلا يعقل أن يموت بسبب إفراطه في تناول جرعات كبيرة من المخدرات من نوع "هيروين".

عندها كاد **(راتب)** أن يفقد صوابه إلى الأبد إذ هجم على الضابط ومسكه من تلابيب قميصه وياقته وصار يهزه بشكل جنوني ويصيح بأعلى صوته: أنت كذاب.. أنت كذاب.. أنتم قتلتموه.

ولولا أن الضابط كان متعاطفاً معه منذ البداية لكان زج به في إحدى زنازين المركز دون أن يرمش له جفن. لكنه تمالك وكاد قلبه يتقطع عليه وأخذ يعمل على تهدئته كما يفعل الأخ الكبير من أخيه الصغير. وظل **(راتب)** غير مصدق سبب الوفاة إلى أن أراه نتائج التحليل الطبي الشرعي الذي أكد ما قاله له.

ومن تلك اللحظة التي غادر بها **(راتب)** المركز على متن حنطور، كان قد استأجره لكي يصطحب معه الجثمان وهو يفكر ويتأمل وأحياناً يخاطب نفسه حول ما سمعه من الضابط: "**(عامر)** الذي لم يمس طول حياته سيجارة وكان لا يطيق حتى دخانها يموت بالمخدرات، ولولا أن عثرت عليه الشرطة مُلقى بلا روح على قارعة الطريق لما عاد إلى أهله حتى جثماناً". ثم يسكت ويتنهد ويفكر ثم يمسك رأسه بين يديه ثم يعاود الحديث مع نفسه: "وماذا سأقول لأمه المسكينة.. وكيف سأقف أمام وجهها حين أبلغها".

ثم مرة أخرى يضع رأسه الثقيل بين يديه ويبقى على هذا الحال حتى وصل طرف قريته. هناك طلب من سائق الحنطور أن يتوقف ثم نزل وترجل بضعة أمتار، وهو يحمل خطواته حملاً ويشعر بها أقرب إلى الخدر دون أن يشعر بقلبه بين ضلوعه وكأنه سقط في الطريق. وكانت روحه مثقلة تعبة يسمع صوت لهاثها من مطاردة الأحزان والهموم والأوجاع لها. ونفسه منهكة مفككة قد أعيتها الأفكار والخواطر وكثرة الهواجس.

وقف في نقطة مشرفة على القرية وصار يراقبها بعين مشفقة رقراقة تائقة خائفة ومبصرة عبر اختراق الزمن حال القرية وأهلها بعد وصول نبأ الفاجعة الكارثة إلى قلوبهم وأرواحهم.

لم يكن **(راتب)** يعرف شيئاً عن أزمة قريته مع القرية الكبيرة، لذا تفاجأ من حركة الناس في الشوارع في هذا الوقت، إذ اعتاد أهل قريته أن يلتزموا بيوتهم ساعات الظهيرة بعد أن يرجعوا من مزارعهم وحقولهم على أن يعودوا إليها ساعات العصر لمزاولة أعمالهم فيها وفق الحاجة.

ولما دقق النظر أكثر. أحس أن القرية مقلوبة رأس على عقب، ليست كعادتها وليست على طبيعتها البتة.

حاول أن يفكر ما عسى قد حدث فيها لكن وطأة الأحزان والهموم وعضات الألم التي جاء بها لم تجعله يتفاعل بما يكفي مع ما رأى وأصلاً عقله لا يقوى على التحليل والتفكير بعمق فقد استُنزف وأنهك بما فيه الكفاية. الشيء الذي حدا به أن يعتزم تقدمه بصحبة الجثمان والقنديل صوب قريته التي من المفروض أن تواجه مصيرها غداً في الموعد المضروب لها من قبل القرية الكبيرة.

والشيء الوحيد الذي خطر له سريعاً واعتبره وحده القادر على إحداث هذا الإرباك في القرية هو وصول **(باجس)** مع القنديل الذي لا ينطفئ. ثم عاد وغاص مع همومه، ولا يدري أن **(باجسًا)** قد قرر أن يستقر في قريته الجديدة في بيت الزوجية الجديد مع **(مريم)** التي أحبها من كل قلبه.

لقد اتخذ **(باجس)** هذا القرار بعد انتكاسته مع القنديل أو بالأحرى مع الكوخ.

فحينما لمح الكوخ ولم يستيقن منه.. قصده بعد يومين من عودته إلى البيت.

وعندما وصله كان هذا الكوخ هو نفس الكوخ الذي سبقه إليه **(راتب)** وغادره مع قنديله الذي لا ينطفئ.

دلف إلى داخل الكوخ. وجد **(الشيخ)** الهرم يصلي وكانت الحمّى قد غادرته. انتظره ريثما ينتهي من صلاته. وحالما فرغ **(الشيخ)** من الدعاء.. رحب بالضيف الشاب. **(باجس)** عرفه من فور رؤيته.. تردد في البدء أيفتح معه موضوع القنديل أم يراوغ ويعود.

سارع **(الشيخ)** إلى قطع تردده:

– أجئت أنت الآخر من أجل القنديل

دُهش **(باجس)** وظهرت عليه علامات التجهم ثم تماسك وسأله مستغرباً:

– تقول أيها **(الشيخ)** الكريم أنت الآخر؟

– هذا يعني يوجد من سبقني إلى القنديل.

وصمت واجماً ينتظر رد **(الشيخ)**.

لكن **(الشيخ)** لم يحره جواباً على الفور. وبعد لحظات أحسها **(باجس)** ساعات قال **(الشيخ)**:

– نعم لقد سبقك به.

سقط في يد **(باجس)** واضطرب ولم يعرف ماذا يقول أو يفعل.

أحس **(الشيخ)** بالخيبة التي مُني بها **(باجس)** ولم يرد أن يرجع خالي اليدين قال:

– بما أنك قد وصلت ولكن متأخراً وبعد فوات اسمع مني النصيحة.

سكت هنيهة ثم واجهه قائلاً:

أي بني: إذا حان واجب اللحظة أجب من توّك وإلا أضعت اللحظة وخسرت باللحظة التي تليها.

وربت على كتفيه.

رقرقت عينا **(باجس)** ثم قام وانصرف قافلاً إلى بيته يحمل معه النصيحة، ويحمل معه أيضاً قرار الاستقرار مع **(مريم)** في قريتها.

اعتلى **(راتب)** مقعده في الحنطور ثم أمر السائق بأن يستأنف المسير نحو القرية. ثم تناول القنديل، ونفسه منزوعة الفرحة مسلوبة الشعور بالظفر والنجاح، ووضعه على رجليه أمام حجره دون أن ينظر إليه كتلك النظرات حينما انتهى من صناعته، وحتى أنه لم يرمقه بمجرد نظره عادية عابرة، واكتفى بأن وضع يديه عليه ليحميه أو لتتكئ عليه همومه وأشجانه على فقدانه أعز أصحابه: حليفه بالفكرة وشريكه بالرحلة.

وما إن أشرف على مدخلها الرئيس حتى أمسى محط استقطاب أنظار الرائحين والغادين من أهل القرية إذ أنهم لم يألفوا رؤية حناطير في قريتهم، ويعتبرونها عادة مذمومة لا تروق لهم ولا تليق بشيمهم الريفية

ووفق قناعاتهم هي مظهر من مظاهر كبر وغرور أهل المدن والقرى الكبيرة.

في البدء لم يتحققوا من هوية ركاب لحنطور حتى اقترب منهم عندها تأكدوا أن **(راتب)** هو الذي في الحنطور بشحمه ولحمه، فتنادوا بينهم أن عاد **(راتب)**.

أخذ الشباب والصبية يجتمعون حوله. معظمهم فرحاً بعودته والبعض لأجل مشاهدة الحنطور عن قرب.

تغيرت سحناتهم وأصواتهم عندما شاهدوا القنديل الذي معه.

تيقنوا من فورهم أنه قنديل لا ينطفئ، وأن **(راتب)** قد حاز عليه وظفر به. ازدادوا صخباً ورقصاً وتحول حشدهم إلى ما يشبه العرس. لكنهم لم ينتبهوا إلى الكُرْبَة التي تلف **(راتبًا)** لفاً ولا إلى سواد السحابة التي تكسو وجهه من كل جانب، وكأن القنديل قد خطف عقولهم وعطل قدرتهم على التمييز.

وفي هذا المعمعان تقدم أحد الشبان وأراد أن يتناول القنديل من على رجليْ **(راتب)**، فرمقه **(راتب)** بنظرة حانقة مكبوتة وبلهاء فأسرع الشاب بالرد عليه بأنه سوف يأخذه إلى العم **(أبي راتب)** كي يفرح به ويأخذه إلى **(المختار)** ليذهبوا به إلى القرية الكبيرة.

بالطبع **(راتب)** لم يفهم كثيراً مما قاله لكنه سمح له بتناوله ما دامت المسألة فيها أبو **(راتب)**.

الشاب فعلاً أسرع قاصداً دار **(أبي راتب)**.

كادت الفرحة أن تطوِّح برأسه الذي ما إن أمسكه وأشبع نظره منه حتى غادر البيت مسرعاً وهو يصطحبه جذلاً إلى دار **(المختار)** تاركاً وراءه زوجته وابنته **(نجوى)** تعيشان الفرحة والبهجة على تخليص القرية من حرب طاحنة لا يريدها أحد من أهل القرية وأيضاً لأن **(راتب)** هو صاحب هذا الفضل.

استبطأت **(نجوى)** وأمها عودة **(راتب)** إلى البيت إذ ظنتا أنه ما يلبث أن يدخل في أعقاب القنديل.. لكنه تأخر على غير ما توقعتا فتحول الفرح الذي يغمرهما إلى قلق وتوتر مما حدا بوالدتها أن ترسلها لتتقصى سبب تأخره عن المجيء.

لم تخطئ **(نجوى)** الاتجاه وكأن قلبها قد حدس لها مكان **(راتب)** وهي لم تخالفه بل سارت على هديه وحسب إيقاع دقاته إذ انقد هذا القلب أملاً بأن يرى **(عامرًا)** حبيبها برفقته فتروي ظمأها برؤيته. ولو لم تكن أمها بادرت إلى إرسالها لما تلكأت بالإسراع هي أصلاً إليه من غير استئذان.

وحالما رآها **(راتب)** قادمة نحوه نزل عن الحنطور ليلاقيها. إذ أنه مذ احتشد الناس حوله لم يتحرك من مكانه حيث أنه عندما رأى فرحة الناس وابتهاجهم بعودته مع القنديل وجد نفسه على خط التماس بين عالميْن وجوَّيْن، بين عالم الأحياء وعالم الأموات وبين جو الفرح وجو الحزن مما خلق في داخله فوضى مشاعر وبلبلة خواطر أضيفت على الأحزان والغموم التي تنهشه بلا توقف فعجز عن النزول عن الحنطور أو حتى عن التلويح للناس الفرحين بقدومه مظفراً.

لكنه حينما رأى أخته ووجهها يشع قلقاً وشوقاً وفرحاً وتوتراً وتحث الخطى بلهفة ولوعة نحوه، فكأن الفوضى في داخله قد اتسقت والبلبلة قد انتظمت فلم يتمالك أن نزل رغم ما يعتريه، وكان نزوله وترجله مثل المحارب الذي عاد منتصراً لكنه مثخن الجراح مكلوم الروح منهك الجسد خائر القوى يجرجر نفسه جرجرة من عاد وحيداً من ساحة المعركة بدون رفاقه الذين شاركوه القتال.

الناس استغربوا حاله واستعصى عليهم فهمه إذ توقعوا منه أن ينطنط كالبهلواني من شدة الفرح لا أن يمشي كالذبيح في حفل عرسه.

أفسحوا له المجال حتى يتسنى له ملاقاتها، فانشق له طريق بين صفين، وساد في الأجواء الصمت والسكون إلى أن سمعوا ارتطامها به عند العناق ومن ثم سمعوا همهمات ترحيبها وأصداء زفراتها الملتاعة وما أغدقته عليه دعوات المجد والثناء.

لكنها ما لبثت أن أحست أن أخاها أحب الناس إليها بعد **(عامر)** أقرب إلى البرودة منه إلى حرارة اللقاء وإلى الجمود منه إلى الانفعال والافتخار. وفجأة شعرت بارتعاشة قوية زلزلت قلبها، وبعفوية بريئة رجعت خطوة إلى الوراء بدت وكأنها أفاقت من سكرة ثم حدقت بأخيها فوجدته خفيض الرأس أشبه بمحارب مهزوم أو بصقر مصيد بقفص من حديد.

لم يبق منظره عضواً فيها إلا اهتز اهتزاز أخت حنون على أخ حبيب. ورغم ما تقاسيه إلا أنها حاولت أن تجد لحاله مبرراً يفسر لها علة

انكساره وسبب أحزانه. ولما لم تجد تفسيراً ولا مبرراً للذي هو فيه عادت ودنت منه حتى ما يكون بينه وبينها موضع يد وضعت يديها على كتفيه دون أن تستطيع السيطرة على حدة الارتجافة التي أصابتها أو على الدموع التي بدأت تضطرب في عيونها أو على دقات قلبها التي اختل نظامها ثم ناشدته بنبرة حزينة دامعة:

- **(راتب)**.. ارفع رأسك يا أخي.

وسكتت تنتظر إجابته دون أن يُغادر بصرها رأسه. ثم صارت برقة الأخت الحانية تهز منكبه لكي تشجعه على رفع رأسه والتفاعل معها وهي تقول: هيا يا أخي.. ارفع رأسك.. هيا أخي.

وحينما رأته قد تأخر في رفع رأسه غزاها سريعاً خاطر أسود عن **(عامر)** قد وخز كلسعة النحلة قلبها. لكنها بالسرعة التي أتى بها طردته من رأسها رغم أنها لم تشاهده معه.

شق على **(راتب)** أن ينظر إلى وجهها الدافئ بغير بشرى أو أمل، وحسِب أن طأطأة رأسه يعفيه من قسوة المواجهة ومرارتها. لكنه لما رأى إصرار أخته وعنادها لم يجد بداً من مقابلتها وجهاً لوجه رغم حر المصائب وقسوتها.

أخذ يرفع رأسه ببطءٍ إليها مع محاولات جبارة لضبط انفعالاته من الفلتان. وعندما التقت عيونهما هالها إلى حد الموت حالته إذ وجدت عيونه رقراقة ووجهه شاحب وذابل أشبه بوجه ابن السبعين عامًا منه إلى وجه **(راتب)** الغض الذي يشع نضارة وحياة وثقة.

كاد قلبها يتقطع شظايا يتكوم حطامه إلى جانبها ولولا حرقتها على معرفة سبب انكساره وانهياره إلى هذا الحد لما تماسك واستعصى على الانسحاق.

تجالدت وجمعت شتات روحها ثم قالت ودمعاتها الحارة تنزلق من مآقيها بوداعة ساحرة: لماذا أنت حزين هكذا.. يا أخي في يوم عيدك.

لم يقو على الرد وحتى أنه لم يفكر بأن يقول لها شيئاً أو بعض شيء. ماذا يقول لها؟ أيقول لها خطيبك قد مات.. حبيبك **(عامر)** مات. وعندما تسأله كيف مات وأين كنت أنت يا **(راتب)**؟ ماذا يرد عليها وبماذا يجيبها؟ أيقول لها مات بالمخدرات بعيداً عني ولم أستطع حجزه ومنعه.. ألا يكفيها مصيبة موته؟ فهل يقتلها بمصيبة السبب.

لم يجبها ولم يرد عليها إلا بمزيد من الصمت.

وهي لم تيأس ولم تنكسر وصارت بذكائها تخاطب قلبه أملاً بأن تثقب أسوار صمته وقلعة حزنه. قالت:

– كلمني يا **(راتب)**.. أنا أختك حبيبتك.. كلمني يا أخي.

لكنه لم يجب.

تابعت:

– كلمني يا أخي لماذا أنت ساكت هكذا.. يا أخي في يوم عرسك.

ولما لم يجب ولم يبدو منه ما يومئ على نيته للإجابة أسرعت الهواجس والخواطر المرعبة عن **(عامر)** إلى رأسها وامتلأ رأسها سواداً وعتمة، وخصوصا لما رد عليها بإطراقة رأسه من جديد إلى أسفل كمن

عُلقت به صخرة كبيرة واستمر في صمته. اندفعت تهزه من منكبيه بصورة عفوية وبعصبية غير معتادة عليها مما أثار دهشة الناس من حولهم الذين كانوا يرقبونهم بعيون دامعة وبقلوب خفاقة لما يُكنونه لهذه العائلة من حب واحترام، ولاهتمامهم بأن لا تصاب بضيم أو ينسج الليل خيوطه المظلمة عليها، وازداد اندهاشهم واستغرابهم وقلقهم لما سمعوها تقول وتكرر لأخيها وهي لا تني تهزه بعنف: أين **(عامر)** يا **(راتب)**.. لماذا لم يأت معك؟

وفجأة هدأت إلى حد الخمود، وخيم الصمت المطبق كل المكان وعن بعد خطوة قد ابتعدتها عنه صارت تحدق به كالبلهاء المصفوعة ولا تدري من صفعها إذ سمعته يقول بصوت منكسر بالكاد يُسمع: بلى لقد أتى معي.. لقد أتى معي يا **(نجوى)**.

وكاد يدخل في حالة هستيرية هو الآخر لولا أنهما سمعا صاحب الحنطور الذي ترجل نحوهما وهو متجهم وتعلوه ارتعاشة خفيفة متوجعة يقول بنبرة خجولة حزينة:

ألا تريد أن تأخذ التابوت.. ينبغي عليَّ.. أن أذهب لقد تأخرت كثيراً عن العودة إلى المدينة.

كانت **(نجوى)** قبل أن تسمع كلمة تابوت من سائق الحنطور تنظر إلى جهته بنظرات فحص وبحث لعلها تشاهد **(عامرًا)** كما قال لها للتو أخوها. لكنها ما أن سمعت طلبه من **(راتب)** حتى قادها قلبها المتصدع المتهاوي نحو العربة التي يجرها الحصان، ولم تكن إلا لحظات حتى سمع **(راتب)**

صرخة تخرق الجبل الراسي وتصدع الحجر القاسي. ونزل صوت صرختها على قلبه كصوت صخرة عظيمة متدحرجة من أعلى الجبل إلى أسفل سفحه.

بعد اجتهاده وصبره ومثابرته حاز **(راتب)** على قنديله الذي لا ينطفئ.

في القصة الحقيقية التالية سوف نرى كيف وصل بطل القصة إلى قنديله الذي لا ينطفئ بطريقته الخاصة.

10

الأخ الذي استضاف **(الاستشهادي)** في ليلته الأخيرة يُكنّى بـ **(أبي أحمد)**، وهو من سكان القدس من أصل خليلي.

أنقل لكم قصته مع **(الاستشهادي)** بلغته هو كما هي بما تحمل من براءة وصدق وصراحة.

مع بعض التعديلات الفنية الطفيفة جداً:

يقول **(أبو أحمد)**: تعرفت على **(خميس)** و**(جمعة)** في مدينة الخليل وتبين لاحقاً أنهما من الجناح العسكري لأحد الفصائل الفلسطينية المجاهدة، ويتبوؤون موقع قيادية فيه. وكان اللقاء الأول. ثم تلقيت إشارة من أحدهم، وأبلغني بأن الجهاز العسكري بحاجة لي، فأعطاني عنواناً.

وعند وصولي إلى هذا العنوان كانوا بانتظاري.

وبعد هذا اللقاء بدأ العمل مباشرة ولأهمية وجودي في القدس طلبوا مني تحديد أهدافٍ عسكرية وتجمعات للمستوطنين داخل مدينة القدس وضواحيها.

وبالفعل قمت بالمهمة دون تقصير لكن وبعد مرور الشهر على تجنيدي وبينما كنت جالساً مع أبنائي في المنزل وهم يلعبون حولي أصابتني حالة

تردد وصارت نفسي تتازعني إذ فكرت بهم وبمستقبلهم من بعدي لو حصل لي أي مكروه. ولكن مع حبي الشديد لهم فإن حبي لأرضي ومقدساتي جعلني أُضحي من أجل كرامة أمتنا وتحرير الأرض من المحتل الغاشم.

وبعد استعدادي النفسي لمواصلة العمل والتضحيات جاءني أحد الإخوة وقال لي: حددنا موعداً للقائك مع **(الاستشهادي)**. وكان هذا في يوم سبت الساعة الخامسة مساء، وكانت كلمة السر: كم الساعة، ويكون الجواب: الساعة خربانة.

وبالفعل حضرت إلى الموقع وكان الضيف بانتظاري وهو من سكان الخليل. وسنتفق على تسميته بـــ **(الشيخ)** كما اتفقتُ مع الإخوة بعد سؤاله عن اسمه وهو كذلك، وهذا من ضرورات العمل.

اقتربت منه وقلت: كم الساعة

قال: الساعة خربانة

قلت: أهلاً وسهلاً. أنا بانتظارك أنت معي. امشي أمامي وعلى اعتبار أنك حضرت للتسجيل في الجامعة.. جامعة القدس وعلى أساس أنك لا تعرف المنطقة، وأنا سأساعدك للوصول للجامعة حتى تسجل فيها.

ثم ذهبت إلى موقع التكسيات وسيارات العمومي، وناديت سائقي السيارات هناك بأخذ طلب إلى عناتا. طلبوا مني مبلغ 80 شيكل ففاصلتهم لكيلا يشكوا بي وأخذت سيارة طلب.

تحدثت مع السائق أن هناك شاباً مقطوعاً ويريد الذهاب إلى عناتا عند أخته وأنا سآخذه معي لأننا معاً بنفس الطريق.

وحالما وصلنا عناتا طلبت من الضيف أن يضع رأسه بالأرض لكي نذهب إلى البيت، وأردت من ذلك التمويه.

لم نتحدث خلال الطريق حتى وصلنا البيت بعد هذا المشوار الشاق والطريق الصعبة المليئة بالمخاطر. ووصلنا إلى البيت عند صلاة العصر.

طلب مني الضيف أن نصلي حتى لا تضيع علينا، فأقمت الصلاة، وهو أمَّ بيَّ.

كان (**الشيخ**) يحمل بيده باقة ورد جميلة على شكل سلة ممسكاً بها بقوة ويتعامل معها بلطف.

أنا لا أعرف ماذا تعني هذه الباقة الجميلة من الورد، وراح تفكيري أن الإخوة أرسلوها لي كهدية للمنزل، فالباقة كانت جميلة.

ثم طلب مني (**الشيخ**) إبرة وخيط ومصحف.

أحضرت له ما طلب.

ثم رفع باقة الورد من داخل السلة الجميلة، وكانت المفاجأة لي كبيرة جداً عندما رأيت أن داخل تلك السلة الجميلة حزام ناسف وأسلاك وجعب ملفوفة بالقماش.

في تلك اللحظة تملكني شعور بالخوف الشديد وقلت له:

– لا تحركها حتى لا تهدم المنزل على رؤوسنا.

قال: لا تخف سأحاول ترتيب الحزام الناسف وأخيط أطرافه حتى يكون مناسباً لي عندما ألبسه.

وكان يضحك ويبتسم، وأنا أشعر بالخوف لأن أبنائي معي، فالأمر أصبح واقعاً والآن بدأ العمل الجدّي.

في هذه اللحظات وهو يخيط ويرتب ببرودة أعصاب ورباطة جأش لا مثيل لها، وأنا بتوتري الكبير كان ينظر إلي ويبتسم ويقول لي:

– لا عليك.. لا تخف.. العملية ستنجح بإذن الله.

وعندما انتهى من عمله قلت له:

– ضع الحزام جانباً.. الآن جاء دوري بالعمل.

ثم تابعت: سأحضر لك شفرة حلاقة لكي تحلق اللحية.

قال: سأحلق بالجنة إن شاء الله تعالى.

قلت: حلق اللحية ضروري لنجاح العملية.

قال: إن كان الأمر كذلك فلا بأس سأحلق.

وبالفعل أعطيته الشفرة ونزلت لإحضار جل (معجون) للشعر من دكان قريب.

وبينما أنا في الدكان تذكرت أني أخطأت خطأ فادحاً بإعطائه الشفرة للحلاقة، والسبب هو أن اليهود المتدينين (الشكناز) في هذه الأيام من هذا الشهر لا يحلقون، ولا يجوز لهم حلق اللحى. رجعت كالمصروع إلى المنزل بأسرع ما يمكن وقلبي يخبط مثل ماتور سيارة موديل 1950 إذ كنت أخشى أن يكون قد بدأ بحلق لحيته. لكن عندما دخلت تنفست

الصعداء إذ وجدت **(الشيخ)** يقرأ القرآن الكريم، ولم يحلق اللحية فقلت بارتياح: جيد أنك لم تحلق اللحية.

قال والابتسامة تزين وجهه: ألم اقل لك أني سأحلق بالجنة إن شاء الله.

الإخوة بطبيعة الحال طلبوا مني عدم الحديث معه ولا في أية موضوع لأسباب أمنية بالطبع.

لكنني وللأسف خالفت الأوامر، وبدأت الحديث معه عن أهله وماذا قال لهم بخصوص غيابه عن البيت. أخبرني: أنه عمل دعوة وهمية ووضعها في البريد على أساس أنها دعوة من شبان مسجد في رام الله يدعونه للحضور والمبيت معهم لإحياء مؤتمر خاص.

طبعاً وصلت الدعوة ليد والدته التي لم تعارض على ذهابه لحضور المؤتمر.

ثم بدافع لا أعرفه واصلت حديثي معه بترغيبي له بالدنيا، وحاولت إقناعه بالتراجع، وأنه لم يفت الأوان وبإمكانه العودة وهو شاب وأهله بحاجة إليه.

لكنه كان يقاطعني متفاجئاً من كلامي ويقول: يا أخي أنت لا تعرف كم عانيت وتعبت لأصل للاستشهاد في سبيل الله.. واليوم عندما اقتربت من هذا الحلم تريد إقناعي بالتراجع!!..

شهادة حق للأمانة، فأنا لم أر في حياتي إنساناً يحب الشهادة إلى هذا الحد مثل هذا الشاب. فبدأت أتراجع عن الكلام معه لأني تذكرت أن الأوامر التي أخذتها من الإخوة تقضي بعدم الحديث معه.

ثم تذكرت أنه من الضروري الذهاب إلى بيت عمي لأنه يوجد عنده عرس لابنه، ويجب أن أثبت وجودي من باب التمويه وأتواجد ولو لفترة قصيرة.

قلت لـــ **(الشيخ)** سأذهب إلى بيت قريب لي وسأعود فلا تحاول الخروج من البيت.

ذهبت إلى بيت عمي وهناك طلب مني ابني أحمد "شيكل".

مددت يدي إلى جيبي ولم أجد المحفظة. عرفت أني قد نسيتها بالبيت، وعدت فوراً إلى البيت. سألت **(الشيخ)** هل رأيت المحفظة.

ابتسم وقال: هذا اسمك يا فلان (وذكر اسمي). والقاعدة تقضي ألا يعرفه لأنه لا سمح الله لو فشلت العملية وأُخذ للتحقيق سيكون من السهولة التعرف عليّ.

توترت واضطربت، ولما لاحظني قال: ماذا جرى لك؟

سكت لحظة ثم قال: العملية ستنجح بإذن الله.

وتكلم بثقة عالية مستطرداً: وستتأكد من ذلك غداً حين سيكون يوم عرسي.. يوم استشهادي والعملية ناجحة بإذنه تعالى. اطمئن.

في هذه الأثناء عاد أبنائي إلى البيت، وصعدوا إلى الطابق الثاني، وبقيت أنا مع **(الشيخ)**.

ثم بعد قليل حضر أبنائي إلى غرفتنا.

حضنهم وصار يلاعبهم. وكنت أتوقع أن يتركوا عليه أثراً بالتراجع والعودة.

ثم لا أدري لماذا أعدت الكرة معه محاولاً إقناعه بالعودة، ولكن لم يجب، وعاد لقراءة القرآن.

في آخر الحديث بالليل وقبل الفجر قال لي **(الشيخ)**:

– أريد منك طلباً خاصاً.

سعدت من جهة لكن خفت من جهة ثانية، خشيت أن يكون طلبه فوق طاقتي. قلت: وما هو.

قال: أن تختم القرآن عن روحي.

قلت: أنا لا أستطيع القراءة.. لا أعرف القراءة.. ولكنني سأطلب من الإخوة أن يختموا المصحف عن روحك.

ثم وعدته في حال تعلمت القراءة أن اختم عن روحه المصحف.

وها أنا الآن أتعلم القراءة في السجن وإن شاء الله سأختمه عن روحه.

أنا لم أنم طوال الليل نهائياً، إذ لم أعتد على هذا العمل بما ينطوي عليه من توتر وقلق وخوف.

أما **(الشيخ)** الاستشهادي نام حوالي الساعة فقط. ومع أذان الفجر قمت وصلينا معا صلاة الفجر، وأمّ بي بصوته الرخيم الجميل آيات الشهادة، وشعرت للأمانة أنه يودع الدنيا وما فيها.. سبحان الله.

صباحاً عند الخامسة بدأت بالتجهز للخروج وبدأ هو بتحضير نفسه وأعطاني ساعة يد و"شوقل" وتركت معه مبلغ مئة "شيكل" للضرورة.

ثم فاجأني بإعطائي أربع صور له يعبرون عن مراحل حياته.

صوره وهو ابن الخامسة، وأخرى وهو بسن الثامنة، وواحدة بسن الثالثة عشرة، والأخيرة وهو بريعان شبابه ابن تسعة عشر عاماً. أي أنها كانت صورة جديدة.

ثم طلب مني أن أضع الصورة الأخيرة له في برواز ثم أهديها إلى أمه.. نعم إلى أمه فهو لم ينسها ويعلم أنها تنتظره وسوف تتبلسم بها. إذ أنه لن يعود إليها من المؤتمر الخاص برام الله أبداً.

طبعا أنا بعثت الصورة للإخوة ليقوموا هم باللازم... وأعتقد أنهم قاموا بالواجب.

ثم بدأت لحظة الصفر.

أخذ (**الشيخ**) يلبس الحزام الناسف ويرتبه كما ينبغي، وهو ينظر إلى المرآة.

ومن ثم قمت بإلباسه لباس العملية التي اتفقنا عليه مع الإخوة، وهو لباس (الشكناز) المتدينين اليهود لكي يبدو بشكل مستوطن يهودي متدين.

وبالفعل كان يبدو سبحان الله كالمستوطن.

وقبل الخروج أعطيته معطف يلبسه فوق لباس (الشكناز) حتى نصل المنطقة اليهودية.

خرجنا باكراً لكي نصل الهدف وهو باص عند التلة الفرنسية قبل توزيع حراسة الباصات.

مشينا حوالي الساعة ولم أستخدم السيارة لأسباب أمنية.

ثم وصلنا إلى نقطة تبعد حوالي 300 متر عن الهدف في شارع مفتوح.

وهناك توقفنا. ثم "لتياستي" حاولت إقناعه لآخر مرة بالعودة والتراجع.

ابتسم.. واكتفى بها إجابة على غبائي.

وللحق لقد شعرت في لحظتها بحب جامح نحوه وأننا أخوان نعرف بعضنا منذ فترة طويلة جداً.

كنا كلما اقتربنا كانت معنوياته ترتفع، وابتسامته لا تفارقه.

في تلك اللحظة.. وفي لحظة خشوع قلت له: أتشفع لي يوم القيامة.

ابتسم مرة أخرى وقال: إن كان لك مجال فسوف أشفع لك لأن القائمة عندي طويلة لكثرة الأهل والأحبة..

سكت هنيهة ثم استطرد: ولكنني إن شاء الله أتمكن من الشفاعة لكم جميعاً.

يا سبحان الله.. لقد كان يتحدث معي بثقة لا يخامرها أيما شك.

ومما زاد انبهاري هو توقه أن يقدم إلى شعبه وأمته حتى بعد استشهاده.. انظروا إلى العطاء والتضحية!.

ثم وضع يدي بيده مودعاً.

وأنا من حرارة الموقف قلت له: دير بالك على حالك.

مرة أخرى ضحك ملء فيه وقال:

أنا سأفجر نفسي إلى قطع وتقول لي دير بالك على حالك. خجلت منه ومن نفسي.. لكنني معذور فأنا مع شخص ليس من هذه الحياة.. بعد لحظة قد يغادرني إلى الأبد.

قلت: ماذا أقول لك يا أخي.

قال: قل لي يا أخي سلم لي على النبي.. على الشهداء والصالحين. فأنا ذاهب للقاء هؤلاء إن شاء الله.

كان (**الشيخ**) الحبيب يتقن التكلم باللغة الإنجليزية بطلاقة.

قلت: إذا تحدث معك أحد بالعبرية.. تحدث أنت معه بالانجليزية. ولا تفجر نفسك على أول محطة ولا الثانية إنما الثالثة حتى يكون الباص قد امتلأ بالركاب، ولتكون النتائج أفضل ما يكون.

ثم سكت وأخذت أنظر إليه نظرات الوداع الأخيرة.

ثم أردفت: أبطئ المسير حتى أتمكن من العودة إلى البيت.

استدرْت رقراق العيون وأخذت أحث الخطى نحو منزلي، وقبل وصولي بقليل سمعت صوت انفجار قد هز مدينة القدس من دويه.. كان انفجاراً قوياً جداً.

فقلت: رحمك الله يا أخي.. يا شهيد.. وبدأت بالبكاء عليه لأنّ فراق الأحبة والأبطال له طعْم ممزوج بالفرحة والحزن ولا يذوقه إلا الذي جربه.

دخلت المنزل والغرفة التي كنا فيها معاً. ثم فتحت التلفاز، وبالفعل كان البث مباشراً بأن عملية حدثت بالتلة الفرنسية، وما هي إلا لحظات حتى بدأ النقل مباشرة من مكان العملية.

ومن خلال المشاهدة عرفت أن ضيفي **(الشيخ)** لم يفجر نفسه كما طلبت منه. يبدو أنه استعجل للقاء الأحبة الذين كانوا على لسانه قبل استشهاده. وإنما فجر نفسه بمجرد صعوده الباص. وبعد ذلك استقر الرقم على مقتل سبعة مستوطنين وجرح العشرات.

ورحم الله شهيدنا وأدخله فسيح جناته.

في هذه الفترة من وجودي في قسم (1) سجن الجلبوع عاد **(أبو أحمد)** إلى السجن لكن إلى قسم رقم (4) وعلمت أنه يتقن القراءة والكتابة وقد ختم المصحف عن روح الشهيد مثلما طلب منه الشهيد.

» تعريف بالكاتب الأسير

- **الاسم: محمد سعيد حسن محمود اغبارية.**
- تاريخ الميلاد: 1968/01/31.
- الحالة الاجتماعية: متزوج.
- مكان الإقامة: الداخل الفلسطيني - أم الفحم.
- مرات الاعتقال: مرة واحدة.
- تاريخ الاعتقال الأخير: 1992/02/26.
- الحكم: ثلاث مؤبدات وخمسة عشر عاما.

الشهادات التعليمية:

- بكالوريوس الكترونيات - جامعة تل أبيب - 1990.
- ماجستير الديمقراطية والعلوم السياسية-الجامعة العبرية المفتوحة - 2005.

المؤلفات:

له مجموعة من المؤلفات، أهمها:

- دليل القادة في فن القيادة.
- عرب الداخل بين وهم الكنيست وسراب المساواة.
- لمعات في عتم الزنازين.
- عرب الداخل جزء من الصراع.
- ولدي يكتب من وراء القضبان.
- رحلة حكيم في سجن السبع.

» في هذه الرواية

كان الشيخ يحمل بيده باقة ورد جميلة على شكل سلة ممسكا بها بقوة ويتعامل معها بلطف.

أنا لا أعرف ماذا تعني هذه الباقة الجميلة من الورد، وراح تفكيري أن الأخوة أرسلوها لي كهدية للمنزل، فالباقة كانت جميلة.

ثم طلب مني الشيخ إبرة وخيط ومصحف.

أحضرت له ما طلب.

ثم رفع باقة الورد من داخل السلة الجميلة، وكانت المفاجأة لي كبيرة جدا عندما رأيت أن داخل تلك السلة الجميلة حزام ناسف وأسلاك وجعب ملفوفة بالقماش.

في تلك اللحظة تملكني شعور بالخوف الشديد وقلت له:

لا تحركها حتى لا تهدم المنزل على رؤوسنا.

قال: لا تخف سأحاول ترتيب الحزام الناسف وأخيط أطرافه حتى يكون مناسبا لي عندما ألبسه.

وكان يضحك ويبتسم، وأنا أشعر بالخوف لأن أبنائي معي، فالأمر أصبح واقع والآن بدأ العمل الجدي.

في هذه اللحظات وهو يخيط ويرتب ببرودة أعصاب ورباطة جأش لا مثيل لها، وأنا بتوتري الكبير كان ينظر إلي ويبتسم ويقول لي:

لا عليك.. لا تخف.. العملية ستنجح بإذن الله.